الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٠٠ — ٣ يونيو سنة ١٩٣٥ — السنة الثالثة

3 me Année, No. 100.

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

Lundi-3-6-1935

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولي رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٠٠ «القاهرة في يوم الاثنين ٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ٣ يونيو سنة ١٩٣٥» السنة الثالثة

فهرس العـــدد

مأساة الآثار المصرية

اكتشفت أخيراً عدة حوادث جديدة تسربت فيها آثار مصرية إلى الخارج بطرق غير مشروعة، ومن ذلك مجموعات ثمينة من أوراق البردى المصرية القديمة ظهرت في لندن وبرلين. ولتسرب آثارنا القديمة، أو بعبارة أخرى لسرقة آثارنا، حديث قديم مؤثر، فليس بين بلاد الأرض بلد نكب في آثاره كما نكبت مصر؛ ونكبتنا في آثارنا فادحة مضاعفة، لأن القدر شاء أن تتلقى مصر من أجيالها الغابرة المجيدة أقدم تراث أثرى وأنفسه، ولأن هذا التراث مازال مطمح أنظار المتربصين من الهواة والعلماء...

ليس بين متاحف العواصم الأوربية الكبرى متحف لا يضم بين أبهائه مجموعة كبيرة من آثارنا المصرية؛ ففي لندن وباريس وروما وڤينا وبرلين وغيرها أقسام خاصة للآثار المصرية، ومن هذه الأقسام مالا يقل كثيراً في ضخامته وتنوعه عن متحفنا المصرى؛ هذا عدا المتاحف الأمريكية، وعدا المجموعات الخاصة التي تسربت إلى أيدى الهواة. وإن المصرى الذى يتاح له أن يزور هذه المتاحف ويرى كل هذا التراث المصرى المنهوب يزين

هذه الأنباء الشاسعة كلها لتأخذه دهشة يمازجها الألم والحسرة لفداحة الخطب الذى نزل بتراثنا الأثرى .

* * *

ومن الحقائق المؤلمة أن تكون مصر هى أول مسئول عن هذا الخطب ، وأن تحمل فيه أكبر تبعة ؛ فهى التى أسلمت تراثها الأثرى منذ أواخر القرن الماضى إلى طائفة من البعثات الأجنبية تعمل فى أرضنا باسم العلم والاستكشاف الأثرى ، ولكنها لم تكن دائماً حريصة على مبادئ العلم ونزاهة العلم ، ولم تكن بالأخص جديرة دائماً بالثقة التى وضعت فيها ، فلم ترع حرمة الأمانة والذمة ، بل كانت تتربص دائماً لما تعثر عليه من آثارنا ، فتهرب منه إلى بلادها بمختلف الوسائل ما استطاعت ، ثم تعود فتقتسم ما تعف عنه من البقية الباقية مع حكومتنا وتفوز دائماً فى ذلك بالنصيب الأوفر .

ومصر هى التى وضعت لنفسها تلك اللائحة السخيفة التى تسمح للبعثات الأجنبية والمكتشفين الأجانب باقتسام آثارنا المكتشفة معنا ؛ ومصر هى التى تقصر فى حراسة مناطقها الأثرية ؛ ومصر هى التى تسلم إدارة مصلحة الآثار والمتاحف المصرية إلى الأجانب ، وهى التى تسمح لأولئك الأجانب بأن يعتقدوا أن هذا الاشراف على آثارنا ميراث لهم يدخل فى منطقة نفوذهم وحقوقهم فى بلادنا .

لقد وقعت حوادث مثيرة فى انتهاب الآثار المصرية كانت حرية أن تنبه الحكومة المصرية إلى خطورة هذا التقصير المؤلم ؛ منها حادث تمثال الملكة نيفرتيتى الذى يعتبر أجمل قطعة فى آثار مصر القديمة ، والذى استطاع عالم ألمانى أن يستلبه بوسائل غير شريفة مازالت وصمة فى جبين العلم الألمانى ؛ ومنها حادث أوراق البردى التى وجدت منذ أعوام فى الفيوم وتسربت إلى متحف برلين ووجد أنها من أنفس ما وجد من أوراق البردى القديمة ، لأنها تحتوى على نصوص كاملة لبعض كتب مانى الفيلسوف الفارسى وصاحب المذهب المشهور ؛ ومنها حادث أوراق البردى الأخيرة التى ظهرت فى لندن ؛ ومنها كثير غير ذلك مما لم يذع أمره .

كل ذلك ونحن سكوت ؛ نشهد هذا الانتهاب لآثارنا تحت ستار العلم والبحث لا ساخطين ، ولكن مستسلمين ؛ وإذا اهتمت حكومتنا فكل مظاهر اهتمامها أن تدعو لجنة الآثار لبحث الأمر ، كما فعلت أخيراً ؛ ثم يطوى أمر اللجنة وأمر الآثار .

* * *

الواقع أنها مأساة ، ومأساة أليمة لا تحتمل السكوت بعد ؛ فإذا كانت مصر تحرص على آثارها حقاً ، وإذا كانت تريد أن تعتبر بالحوادث وأن تعمل لصون تراثها الأثرى ، فعليها أن تبادر قبل كل شىء إلى إلغاء هذه اللائحة الأثرية العتيقة التى تنص على اقتسام الآثار ، وهو نص لا نظن له نظيراً فى أى بلد متمدين يحرص على تراثه القومى ، وأن تستبدل بها لائحة جديدة تناسب روح العصر ، وتكفل نصوصها المشددة صون الآثار المكتشفة وبقائها فى مواطنها ؛ وعليها بالأخص أن تحرم المباحث الأثرية على البعثات الأجنبية بعد أن أثبتت الحوادث منذ نصف قرن أن هذه البعثات هى أساس الشر ، وأنها لم ترع حقوق الأمانة التى ألقيت إليها ؛ ولتكن المباحث الأثرية فى المستقبل مهمة حكومية أو مهمة جامعية تتولاها الحكومة أو الجامعة المصرية بمعاونة بعض الخبراء الأجانب الذين يعملون بإشراف الحكومة مدى حين ، حتى يجئ الوقت الذى يستطيع الإخصائيون المصريون فيه أن يستأثروا بالبحث عن كنوز بلادهم ، وهو فيما نعتقد غير بعيد .

وليترك ولاة الأمر تلك النظرية العتيقة التى ترى فى الأجانب وحدهم الأهلية لإجراء المباحث الأثرية ، فقد دلت الاكتشافات الأثرية الباهرة التى وفق إليها الأساتذة المصريون فى منطقة الأهرام وفى بعض مناطق الوجه القبلى بإشراف الجامعة المصرية على خطأ هذه النظرية المجحفة ، وعلى أن الشباب المصرى إذا مهدت له سبيل الدرس والتخصص استطاع أن يضطلع بجلائل البحوث والمهام .

وليعمل ولاة الأمر أخيراً على انتزاع مصلحة الآثار والمتاحف المصرية من تلك الأيدى الأجنبية التى ما زال تراثنا يبدد فى ظلها ، ولتسلمها إلى الأيدى المصرية ، فهى أبر بتراثها القومى وأكفل بصونه وحمايته من عدوان الطامحين والمتربصين .

« ع »

٦ - الانتحار

تتمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال المسيّب بنُ رافع : وانفض مجلسُ الشيخ ، ودرجتْ بعده أعوامٌ فى عدة الشهور من حمل المرأة ، بلغت فيها أمورُ الناس مبلغَها من خير الدنيا وشرّها ، مما أعرفُ ومالا أعرف ؛ ودخلتُ البصرة أنا ومجاهدٌ الأزديّ ، نسمع الحَسَنَ (١) ونأخذ عنه ؛ فانّا لسائران يوماً فى سكّة بني سَمُرَة ، إذ وافقنا الفتى صاحبَ النصرانية مُقبلاً علينا ، وكنا فقدناه تلك المدة ، فأسرعَ اليه مجاهد فالتزمه وقال : مرحباً مرحباً بذى نَسبٍ الى القلب ؛ وسلّمتُ بعده وعانقته ؛ ثم أقبلنا نسأله ، فقلت له : ماكان آخِرُ أوّلِك ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ أولها هى ؟

فضحك الرجل وقال : آلنّصرانيةَ تعني ؟ قال : نعم . قال : آخرُها من أولها كهذا مني ؛ وأومأ الى ظله فى الأرض ممدودا مشبوحاً مختلطاً غيرَ متميز ؛ كأنه ثوبٌ منشور ليس فيه لابسُه ، وكنا فى الساعة التى يصير فيها ظلُّ كلِّ شيء مثليْه فهو مَزْجُ المسخ بالمسْخ . . .

قال مجاهد : ما أفظَّ جوابَك وأثقلَه يارجل ؟ كأنك والله تاجر لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثمانها ؛ فنظرُه الى فراهةِ الدابة من الدّوابّ والى فراهة الجارية من الرقيق سواء :

قال الرجل : فأنا والله تاجر ، وأنا الساعة على طريق الايوان (٢) الذى يلتقى فيه تِجارُ العراقِ والشام وخُراسان ؛ وقد ضربتُ فى هذه التجارات وحسُنتْ بها حالى وتأثّلتُ منها ؛ غير أن قلبَ التاجر غيرُ التاجر ، فليس يَزِنُ ولا يقبض ، ولا يبيع ولا يشترى . أما «تلك» فأصبحت نسياناً ذهب لسبيله فى الزمن !

قال مجاهد : فكيف كنتَ تَراها وكيف عدتَ تنظر اليها ؟

قال : كنت أنظر اليها بعينيّ وأفكارى وشهواتى ؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضى ؛ فلما دخل بيني وبينها الزمنُ والعقل ، أبعدَها هذا عن قلبي وأبعدها ذاك عن خيالى ؛ فنظرتُ اليها بعينيّ وحدهما ، فرجعتْ امرأةً ككل امرأة ؛ وبنزولها من نفسى هذه النزلة ، رجعتْ أقلَّ من نفسها ومن النساء ، وهذه القلّةُ فيما عرفتُ لا تُصيب امرأةً عند محبِّها إلا فعلتْ بجمالها مثلَ ما تفعله الشيخوخةُ بجسمها ، فأدبَرَتْ به ثم أدبرتْ واستمرتْ تُدْبِر !

وأنتَ فاذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَت التى كانت فيها . . . وأخطرْتَ فى ذهنك نِيةً مما بين الرجال والنساء ، فهل تُراك واجداً الشهوةَ والميلَ ، إلا النَّفْرةَ والمعصية ؟ إن هذا الذى كان الحبّ والهوى والعشق ، هو بعينه الذى صار الاثمَ والذنب والضلالة !

قال مجاهد : كأنك لما ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبها قتلَتْها هى فى نفسك ؟

قال : يا رحمةَ قد رحِمْتُ بها نفسى يومئذ ! أمَا والله إن الذى يقتل نفسه من حب امرأةٍ لَغبيّ . ويحَهُ ! فليتخلّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسِها . وقد جعل الله للحب طرَفين : أحدهما فى اللذّة ، والآخرُ فى الحماقة ؛ مامنهما بدّ . فهذا الحبّ يُلقِى صاحبَه فى الأحلام ويُغَشّي بها على بصره ، ثم إن هو اتجه بطرَفه السعيد الى حظّه المقبِل واتفقت اللذّةُ للمحب — أيقظته اللذةُ من أحلامه ؛ وإن اتجه الحبُّ بطرفه الشقيّ الى حظِّه المُدْبِر وقعت الحماقاتُ فنوناً شتّى بين الحبيبين ، وفعلتْ آخِراً فِعلَ اللذة فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضاً . وهذا تدبيرٌ من الرحمة ، فى تلك القوةِ المدمِّرة المسماة الحبّ . أفلا يدلّ ذلك على أن اللذةَ وهمٌ من الأوهام مادام تحقُّقُها هو فناءَها ؟

خذْ عني يا مجاهد هذه الكلمة : « ليس الكمالُ من الدنيا ولا فى طبيعتها ، ولا هو شيءٌ يُدرَك ، ولكنّ من عظمة الكمال أن استمرارَ العمل له هو إدراكُه »

قال مجاهد : لقد علمتَ بعدَنا علماً ، فمن أين لك هذا ، وعمّن أخذت ؟

قال : عن السماء !

قال : ويلك ! أين عقلُك ، فهل نزل عليك الوحى ؟

---

(١) الحسن البصرى الامام العظيم (٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصه)

قال الرجل: لا ، ولكن تعاليا معي الى الدار فأحدّثكما

* * *

قال المسيّب: وذهبنا معه ؛ فأتينا بطعام نظيف فأكلنا ، وأشعرتْنا الدارُ أن ربّها قد وقع فيما شاء من دنياه وتواصلتْ عليه النعمة ؛ فلما غسلنا أيدينا قال مجاهد: هيهِ يا أبا . . . يا أبا مَن ؟ قال: أبو عُبَيد . قال: هيهِ يا أبا عبيد . . .

فأفكرَ الرجلُ ساعةً ثم قال: عهدُكما بي منذ تسعٍ في مجلس الامام الشعبيّ بالكوفة ؛ وقد كنتُ في بقيةٍ من النعمة أتجمّلُ بها ، وكانت تمسكُني على موضعي في أعين الناس ؛ فما زالت تلك البقية تدِقّ وتنفضُّ حتى نكِد عيشي ووقعْتُ في الأيام المقعَدَة التي لا تمشي بصاحبها ، وانقلب الزمنُ كالعدوّ المُغير جاء ليصطلِمَ ويُخرِبَ ويُفسِد ، فأثّر فيّ أقبحَ آثاره ، فبعتُ ما بقي لي وتحملتُ عن الكوفة الى البصرة ، وقلت: إن لم تتغيّر حالي تغيّرت نفسي ، ولا أكون في البصرة قد انتهيتُ الى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيري ، وأدعُ الماضيَ في مكانه وأمضي الى ما يستقبلُني

فالتمستُ رُفْقَةً فالتأمْنا عشرين رجلاً ، فلما كنا في الطريق ، سلبَنا اللصوصُ وحازوا القافلةَ وما تحويه ، ونجوتُ أنا راكباً فرسي وعُمْري ، وأدركتُ حينئذ أن الحياة وحدها مُلْكٌ عظيم ، وأنها هي الأداةُ الإلٰهيّة ، والباقي كلُّه هو من أنفسنا لأنفسنا والأمر فيه هيّنٌ والخَطْبُ يسير

وقلت: لو أن اللصوصَ قد مرُّوا بنا كما يمرّ الناسُ بالناس لما نكبونا ، ولكنهم عرضوا لنا عُروضَ اللصّ للمال والمتاع لا للناس فوضعوا فينا الأيدي الناهبة ، ومن هذا أدركت أن ليس الشر إلا حالة يتلبس بها من يستطيع أن يتخلص منها . فاذا كان ذلك فأصل السعادة في الانسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عرضت له ؛ وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشر كما يراه واقعاً في غيره ؛ فالمرأة العفيفة إذا عرضت لها حالة من الفجور ونظرت إلى نفسها وحظّ نفسها فقد تعمى وتَزِلّ ، ولكنها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها وإلى أثره على الفاجرة كانت كأنما زادت على نفسها نفساً أخرى تريها الأشياء مجردة كما هي في حقائقها

قال: ومضيت على وجهي تتقاذفني البقاع والأمكنة ، وأنا أعاني الأرض والسماء ، وأخشى الليل والنهار ، وأكابد الألم والجوع ، حتى دخلتُ البصرةَ دخولَ البعير الرازح قطَعَ الصحراءَ تأكلُ منه ولا يأكل منها ، فأنضاه السفر وحسَره الكلال ونحتَه الثِّقل الذي يحمله ، فجاء ببنْية غير التي كان قد خرج بها . وكانت أيامي هذه عمراً كاملاً من الشقاء جعلتني أوقن أن هؤلاء الناس في الحياة إن هم إلا كالدّواب تحت أحمالها ، لا تختار الدابةُ ما تحمل ولا من تحمل ، ولا يُترَكُ لها مع هذا أن تختار الطريق ولا مدة السير وليس للدابة إلا شيئان: صبرها وقوتها ؛ إن فقدتهما هلكت ، وإن وهنا فيهما كان ضعفها بحسب ذلك

إن هنالك أوقاتاً من الشقاء والبؤس تقذف بالانسان وراء انسانيته وإنسانية البشر جميعاً لا تبالي كيف وقع وفي أيّ وادٍ هلك ، فلا ينفع الانسان حينئذ إلا أن يعتصم بأخلاق الحيوان ، في مثل رضاه الذي هو أحكمُ الحكمة في تلك الحال ، وصبرِه الذي هو أقوى القوّة ، وقناعتِه التي هي أغنى الغنى ، وجهلِه الذي هو أعلمُ العلم ، وتوكله الذي هو إيمانُ فطرته بفطرته . لا يبالي الحيوان مالاً ولا نعماً ولا متاعاً ولا منزلةً ولا حظاً ولا جاهاً ، ولن تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملك أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقّاءِ من السقّاء ؛ ولعلك لو سألتهما وأطاقا الجوابَ لقال لك الأوّل: إن الذي فوق ظهري ثقيلٌ مقيتٌ بغيض ؛ ولقال لك الثاني: إن الذي يركبه خفيفٌ سهلٌ سمح !

ولكن بلاء الانسان أنه حين يطوحه البؤس والشقاءُ وراء الانسانية ، لا ينظر لغير الناس ؛ فيزيده ذلك بؤساً وحسرة ، ويمحقُ في نفسه ما بقي من الصبر ، ويقلبُ رضاه غيظاً ، وقناعته سخطاً ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلكة أعجزها أن تهلك أحداً فلا تجد من تُدمِّره غيرَ صاحبها ؛ فاذا هي وجدت مساغاً إلى الناس فأهلكت وعاثت وأفسدت جعلت صاحبها إما لصاً أو قاتلاً أو مجرماً أيّ ذلك تيسر !

* * *

قال: وكنتُ أعرف في البصرة فلاناً التاجر من سَراتِها ووجوهِ أهلها ، فاستطرقته فاذا هو قد تحول إلى خراسان ، وليس يعرفني أحدٌ في البصرة ولا أعرف أحداً غيره ؛ فكأنما

نكبت مرة ثانية بغارة شر من تلك ، غير أنها قطعت على في هذه المرة طريق أيامى ، وسلبتني آخر ما بقى لنفسى وهو الأمل !

ورأيت أنه ما من نزولى إلى الأرض بد ، فأكون فيها انساناً كالدابة أو الحشرة ، حياتها ما اتفق لاما تريد أن يتفق ؛ وأنه لا رأى إلا أن أسخر من الشهوات فأزهد فيها وأنا القوى الكريم ، قبل أن تسخر هي منى إذا جئتها ، وأنا الطامع العاجز !

وفى الأرض كفاية كل ما عليها ومن عليها ولكن بطريقتها هى لا بطريقة الناس ؛ وما دامت هذه الدنيا قائمة على التغيير والتبديل وتحول شيء إلى شيء ، فهذا الظبى الذى يأكله الأسد لا تعرف الأرض أنه قد أكل ولا أنه افترس ومزق ، بل هو عندها قد تحول قوة فى شيء آخر ومضى ؛ أما عند الناس فذلك خطب طويل فى حكاية أوهام من الخوف والوجل ؛ كما لو اخترعت قصة خرافية تحكيها عن أسد قد زرع لحماً . . . فتعهده فأنبته فحصده فأكله ، فذهب الزرع يحتج على آكله ، وجعل يشكو ويقول : ليس لهذا زرعتني أنت ، وليس لهذا خرجت أنا تحت الشمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشمس على وعليك !

والانسان يرى بعينيه هذا التغيير واقعاً فى الانسانية عامتها وفى الأشياء جميعها ؛ فاذا وقع فيه هو ضج وسخط ، كأن له حقاً ليس لأحد غيره ؛ وهذا هو العجيب فى قصة بنى آدم ، فلا يزال فيها على الأرض كلمات من الجنة لا تقال هنا ولا تفهم هنا ؛ بل محل الاعتراض بها حين يكون الانسان خالداً لا يقع فيه التغيير والتبديل . ومن هذا كان خيال اللذة فى الأرض هو دائماً باعث الحماقة الانسانية

قال أبو عبيد : وذهبت أعتمل بيدى وجسمى على آلام من الفاقة والضر ، ومن الخيبة والاخفاق ، ومن إلجاء السكنة وإحواج الخصاصة ؛ فلقد رأيتنى وإن يدى كيد العبد ، وظهرى كظهر الدابة ، ورجلى كرجل الأسير ، وعنقى كعنق المغلول ، ويطلع قرص الشمس على الدنيا ويغيب عنها وما أعتمل إلا بقرص من الخبز ، ولقد رأيتني أبذل فى صيانة كل قطرة من ماء وجهى سحابة من العرق حتى لا أسأل الناس ، ويا بؤساً لى إن سألت وإن لم أسأل !

وما كان يمسكني على هذه الحياة المرمقة ، تأتى رمقاً بعد رمق فى يوم يوم — إلا كلام الشعبى الذى سمعته فى مسجد الكوفة ، وقوله فيمن قتل نفسه ، فكان كلامه نوراً فى صدرى يشرق منه كل يوم مع الصبح صبح لإيمانى . ولكن بقيت أيام نعمتى الأولى ولها فى نفسى ضربان من الوجع كالذى يجده المجروح فى جرحه إذا ضرب عليه ، فكان الشيطان لا يجد منفذاً إلى إلا منها . وفقدت الصديق وعونه ، فما كان يقبل على صديق إلا فى أحلامى من وراء الزمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسم الرجل وقال : إذا فرغت الحياة من الذى هو أقل من الممكن ، فكيف يكون فيها الذى هو أكثر من الممكن ؟ إن جوع يوم واحد يجعل هذه الحياة حقيقة جافية لاشعر فيها ، ويترك الزمن وما فيه ساعة واحدة معطرة . . والبؤس يقظة مؤلمة فى القلب الانسانى تحرم عليه الأحلام ؛ وما الحب من أوله إلى آخره إلا أحلام القلوب بعضها ببعض !

***

قال أبو عبيد : وتضعضعت لهذه الحياة المخزية وأبرمتني أيامها ، وحملت فى الميت والحى ، ورأيت الشيطان لعنه الله كأنما اتخذنى وعاء مطرحاً على طريقه يلقى فيه القمامة . . ؛ وظهر لى قلبي فى وساوسه كالمدينة الخربة ضربها الوباء فأعمر ما فيها مقبرتها ؛ وعاد البؤس وقاح الوجه لا يستحى ، فلا أراه إلا فى أرذل أشكاله وأبردها ؛ ولقد يكون البؤس لبعض الناس على شيء من الحياء فيأتى فى أسلوب معتذر كالمرأة الدميمة فى نقابها .

وقلت لنفسى : ما هو والله إلا القتل ، فهذا عمر أراه كالأسير أقيم على النطع وسل عليه السيف ، فما ينتقم منه المنتقم بأفظع من تأخير الضربة ، وما يرحمه الراحم بأحسن من تعجيلها !

وبت أؤامر هذه النفس فى قتلها وأحدثها حديث الموت فسددت رأيى فيه ، وقالت : ما تصنع بجسم كالمتعفن أصبح كالمقبور لا أيام له إلا أيام انقراضه وتفتيته ؟ بيد أنى ذكرت كلام (الشعبى) فى ذلك المجلس وأنا أحفظه كله ، فجعلت أهذه[1] ما أترك منه حرفاً ، واتخذته متكلماً مع نفسى لا كلاماً ، وكنت كلما غلبنى الضعف رفعت به صوتى وأصغيت كما أصغى

(١) الهذ الاسراع فى القراءة

إلى إنسان يكلمني ؛ فرأيت الشيطان بعد ذلك كاللص إذا طمع في رجل ضعيف منفرد ، ثم لما جاءه وجد معه رجلاً ثانياً قوياً فهرب !

قال أبو عبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان وجدت له السكينة في قلبي فنمت ، فاذا الفزعُ الأكبر الذي لا ينساه من سمع به فكيف الذي رآه بعينيه ؟

رأيتني ميتاً في يد غاسله يقلّبه ويغسله كأنه خرقة ؛ ثم حملت على النعش ، كأن الحاملين قد دفعوني يقولون : انظروا أيها الناس كيف يصير الناس ؛ ثم صلى عليّ الامام الشعبي في مسجد الكوفة ؛ ثم دُلِّيتُ في قعر مظلمة وهيلَ التراب عليّ ، وتركتُ وحيداً وانصرفوا !

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ؛ ثم رأيتُ كأنما نُفخ في الصُّور وبُعثرت الأموات جميعاً ، فطرنا في الفضاء ، وكانت النجوم غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عرصات القيامة وفي هول الموقف !

وتوجّهتُ بكلّ شعرةٍ في جسمي إلى الرجاء في رحمة الله ؛ ورأيت أعمالي رؤيةً أحزنتني ، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلا من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحد في الساعة بعد الساعة ، ندروا وتبعثروا وضاعوا كأعمالي الصالحة !

وذكرتُ أني كدتُ أقتل نفسي فراراً بها من العمر المؤلم ، فنظرت ، فاذا الزمن قد ظهر في أبديّته ، ورجع الماضي حاضراً بكل ما حوى كأنه لم يمض ، وإذا عمري كله لا يكاد يبلغ طرفةَ عين من دهر طويل ، فحمدتُ الله أني لم أفتد ألم اللحظة القصيرة القصيرة ، بعذاب الأبد الخالد الخالد الخالد .

وجيء على أعين الخلق بأنعم أهل الدنيا وأكثرهم لذّاتٍ في تاريخ الدنيا كله ، فصاح صائح : هذا أنعمُ من كان على الأرض منذ خلقها الله إلى أن طواها . ثم غُمس هذا المنعَّمُ في النار غمسةً خفيفةً كنبضة البرق ، وأُخرج إلى المحشر ، وقيل له والناسُ جميعاً يسمعون : هل ذقتَ نعيماً قطّ ؟ قال : لا والله

ثم جيء بأتعس أهل الأرض وأشدهم بؤساً منذ خُلقت الأرض ، فغُمس في الجنة غمسةً أسرعَ من النسيم تحرّكَ ومر ، ثم أُخرجَ إلى المحشر وقيل له : هل ذقتَ بؤساً قطّ ؟ قال : لا والله .

وسمعنا شهيق جهنمَ وهي تفور ، تكاد تميّزُ من الغيظ ؛ فأيقنتُ أن لها نفساً خُلقتْ من غضبِ الله . وخرج منها عنُق عظيم هائل ، لو تضرمت السماء كلها ناراً لأشبهته ، فجعل يلتقطُ صِنفاً صِنفاً من الخلق ؛ وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرّةً واحدة كالمغناطيس لتراب الحديد ؛ وقذفَ بهم إلى النار ؛ ثم انبعثَ فالتقط الأغنياءَ المفسدين فأطارهم إليها ؛ ثم جعل يأخذ قوماً قوماً وقد ألجمني العرقُ من الفزع ؛ ثم طرتُ أنا فيه ونظرتُ فاذا أنا محتبس في مظلمةٍ ناريّة كالهاوية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسهم . ولو أن بحار الأرض جُعلَ فيها البحر فوق البحر فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلّها فيكون العمق كبُعْدِ ما بين الأرض والسماء ، ثم تُسجرُ ناراً تلظّى لكانت هي الهاوية التي نحن في أعماقها ، وكنتُ سمعتُ من إمامنا الشعبي أن عصاةَ المؤمنين الموحّدين إذا ماتوا على إيمانهم كانوا في النار أحياءً وجوارحهم مَوْتى ؛ لأن هذه الجوارحَ قد أطاعت الله وسبّحته فكُرِّمتْ بذلك حتى على جهنم ، ثم يعذّبون عذاباً فيه الرحمة ، ثم يخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النار ، فكان إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسه ، فسمع قائلا من بعيد يقول لمؤمن : أخرج فان إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرني إيماني ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟

ورأيت رجلا ذبحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة ، فلا يخرج الصوتُ من حلقه ، إذ كان قد فَرَاه وبقي مفريا ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمدية ، فهو هناك تسلخ الزبانية قلبه تبحث هل فيه نية صالحة ، فلا تزال تسلخ ولا تزال تبحث !

ورأيت آخر كان تحسّى من السم فمات ظمآن يتلظّى جوفه ، فلا تزال تنشأ له في النار سحابةٌ رويّةٌ تبرق بالماء ، فاذا دنتْ منه ورجاها انفجرتْ عليه بالصواعق ثم عادت تنشأ وتنفجر !

وقال رجل إنما كنت مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسي فنوديَ : أو ما علمتَ أن الله يحاسبك على أنك عاقل لا مجنون

٢ ـ لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الأحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أقامت لوكريسيا فى رومة مدى حين ، أداة لمشاريع أبيها البابا وأخيها شيزارى ، ومستودعاً لدسائس البلاط الرومانى ؛ وكانت تشعر أنها فى هذا المعترك تعيش فى نوع من الأسر ؛ وقد قالت فيما بعد : « إن رومة كانت سجنى » . وكان زواجها من جان سفورزا كما رأينا ، لبواعث سياسية ترجع الى رغبة اسكندر السادس فى تقوية التحالف بينه وبين لودفيكو سفورزا طاغية ميلانو وعم جان . ولكن لودفيكو لم يلبث أن ارتد عن هذا التحالف الى محالفة شارل الثامن ملك فرنسا وتحريضه على غزو ايطاليا ، والاستيلاء على مملكة نابل اعتماداً على زعم قديم بوراثة عرشها . عندئذ رأى البابا أنه لم تبق حكمة لبقاء هذا الزواج ، فاعتزم الغاءه حتى يستطيع بعد أن تسترد لوكريسيا حريتها أن يتخذها أداة لعقد صفقة أخرى

ولكن جان سفورزا لم يقبل الانفصال عن زوجته الحسناء طوعاً ، فهدده شيزارى بالقتل وفر الى بيزارو ؛ ولجأت لوكريسيا حزينة باكية الى دير القديس سكستوس لأنها كانت تحب زوجها ؛ وعمد البابا لابطال الزواج الى اجراء مدهش ، فانتدب لجنة مؤلفة من كردينالين لتهيئة أسبابه ؛ ورأى الحبران أن يسندا الفسخ الى أن لوكريسيا ما تزال بكراً عذراء ، وأن زوجها جان سفورزا كان عنيناً ولم يكن رجلاً كاملاً ؛ وأرغم البابا ابنته على أن توقع إقراراً بأنها ما تزال بكراً عذراء كيوم مولدها ؛ وعلى ذلك أعلن فسخ الزواج ؛ ودهشت رومة ، ودهشت ايطاليا كلها لهذا الزعم ، لأن جان سفورزا كان فتى متين البنية ، وكان أرمل توفيت عنه زوجته الأولى بعد أن رزق منها طفلة . وحاول جان أن يثور على هذا القرار وأن يقاوم ، ولكنه أذعن لنصح عمه لودفيكو وعمه الآخر الكردينال اسكانيو وكيل الكرسى الرسولى ، وارتضى مضيره صاغراً ؛ وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٤٩٧ ؛ وكانت لوكريسيا عندئذ فى عامها السابع عشر . وهنا يصيح مؤرخ معاصر هو « جيشا ردينو » : « لم يحتمل البابا أن ينافسه فى ابنته أحد حتى زوجها ! » . وثار حول لوكريسيا سيل من أروع الاشاعات والأقاويل

وحدث فى ذلك الحين أيضاً حادث اهتزت له رومة ، هو مقتل جان دوق جانديا ابن البابا ؛ وكان الى جانب الطلاق مستقى خصباً لهذه الاشاعات الغريبة التى تصور الأسرة البابوية عريناً من الضوارى التى جردت من كل عاطفة بشرية . وكان دوق جانديا أكبر أبناء اسكندر السادس ، فى الرابعة والعشرين من عمره ، وأخاه شيزارى فى الحادية والعشرين ؛ وكان البابا يعتبر ابنه البكر عميد أسرته من بعده ، ويرشحه دون شيزارى لكل مشاريعه السياسية العظيمة . أما شيزارى فقد زجه أبوه الى الحياة الكنسية ، ورقاه بسرعة كردينالاً لبلنسية ؛ ولكن شيزارى كان بطبيعته الوثابة المغامرة ، وأطماعه الدنيوية البعيدة يزهد فى الحياة الكنسية ويتلمس الفرار منها ؛ وكان يرى فى أخيه

وقوىٌّ لا ضعيف ، وقادرٌ لا عاجز ؟ كنتَ تعقل بالأقلِّ أنك ستموت ، وكنت تَقوَى على أن تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشرَّ .

وقال رجل عالم قد حز فى يده بسكين فمات : « لم يكن الكمال من الدنيا ولا فى طبيعتها ولا هو شىء يدرك . » فصرخ فيه صوتٌ رهيب : « ولكنَّ من عَظمة الكمال أن استمرار العمل له هو إدراكه ! »

***

قال أبو عبيد : ثم انتصب بازائى شيطان مارد أحمر ، يلتمع التماع الزجاج فيه الخمر ، فقام فى وجهى وقال : بماذا جئتَ إلى هنا ياعدو الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعت النداء : شفعت فيك الخمر التى لم تشربها ، أخرج إن إيمانك ينتظرك !

فصحت الحمد لله ! وتحرك بها لسانى فانتبهت . لقد علمت أن الصبر على المصائب نعمة كبرى لا ينعم الله بها إلا فى المصائب

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

الأكبر دوق جانديا حائلاً دون أطماعه . ففي ربيع سنة ١٤٩٧ ، كان البابا قد عاد الى التفاهم مع مملكة نابل (نابولى) واتفق مع ملكها الجديد فردريك الأرجونى على أن يتلقى التاج من قبل الكرسى الرسولى ، وأن يقطع بعض ولاياتها الجنوبية لدوق جانديا ولد البابا ؛ وانتدب البابا ولديه چان وشيزارى للسفر الى نابل ، الأول ليتسلم إقطاعه الجديد ، والثانى ليمثله فى تتويج ملك نابل . وفى مساء ١٤ يونيه ، قبيل رحيلهما ، أقامت لهما والدتهما ڤانوزا مأدبة عشاء حافلة فى قصرها المتواضع ؛ وبعد العشاء انصرف دوق جانديا مع أخيه شيزارى ، ثم افترق الاثنان فى منتصف الطريق ، وسار الدوق مع تابع له واختفى فى جوف الظلام ؛ ولم يعرف قط ما حدث له بعد ذلك ؛ ولكن تابعه وجد ملقى فى صباح اليوم التالى على شاطىء التفيرى (التيبر) جثة هامدة ، وانتشلت جثة الدوق بعد ذلك من النهر ، وقد أثخنت طعناً ، ولم يكشف سر الجريمة قط

وطار الخبر فى رومه بأن دوق جانديا قد قتل ، وحزن البابا لمصرع ولده الأكبر أيما حزن ، ولبث يذرف الدمع الثخين مدى يومين وهو معتكف فى غرفته لايتذوق طعاماً ولايرى أحداً . من اجترأ على ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء ؟ ولأى الأسباب ؟ كثرت فى ذلك الظنون والريب ، وتنوعت التهم والبواعث ؛ فقيل إن الجريمة من تدبير چان سفورزا انتقاماً للتفريق بينه وبين زوجه ، وقيل إنها من تدبير عمه الكردينال اسكانيو انتقاماً لشرف الأسرة ، وقيل إنها من تدبير آل أورسينى ألد خصوم البابا ؛ ولكن هذه التهم لم تلق كبير سند ؛ أما أولئك الذين يعرفون آل بورجيا فقد ألقوا تبعة الجريمة على شيزارى بورجيا نفسه

أجل ، قتل شيزارى أخاه چان دوق جانديا لأنه يفوز دونه بعطف أبيه ، ويخصه أبوه دونه بمشاريعه السياسية ، ويعتبره لسنه زعيم الأسرة . وشيزارى لايطيق أن يرى دون أطماعه عقبة إلا ويسحقها . ولذلك التعليل ظاهر من الوجاهة . ولكن الرواية تذهب إلى أبعد من ذلك ، فتقول إن شيزارى قتل أخاه لأنه ينافسه فى غرام أختهما لوكريسيا !

أرأيت كيف تميل الرواية دائماً إلى تصوير هذه الغادة الفاتنة إلهة للحب الأثيم والفجور فى أروع مظاهره ؟ كانت لوكريسيا خليلة أبيها ، خليلة أخويها ! وكانت ثمة معارك خفية تضطرم فى ذلك العرين بين عباد الجمال والهوى المحرم ؛ وكان چان سفورزا زوج لوكريسيا أشد الناس تأييداً لهذه التهم ، يؤكد لزملائه الأمراء ولصحبه وللناس جميعاً أنه إذا كان البابا قد عمل على تمزيق العلائق التى تربطه بزوجته لوكريسيا ، فذلك بسبب الهوى الأثيم الذى تبثه إلى أبيها ، وإنه إذا كان شيزارى قد دبر مقتل أخيه وألقاه فى التفيرى ، فذلك بسبب المنافسة بينهما على حب لوكريسيا . وكانت الفضيحة رائعة ، والتهم أروع ، تجوب إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها ، وتجوب قصور أوربا كلها ؛ ويتناولها الرواة والسفراء والشعراء بالتدوين نثراً ونظماً باعتبارها من أهم حوادث العصر وأعجب السير

وهنا يرى بعض النقدة المحدثين الذين يميلون إلى تبرئة لوكريسيا من هذه التهم الشنيعة ، أن هذه الخصومة الزوجية هى أصل هذه التهم وهى روحها ، وأن هذه التهم قد تلقاها المعاصرون من الأفواه الخصيمة ، ثم زادوا عليها وبالغوا فى تصويرها ، ثم تناقلتها أجيال الخلف ، واستمرت على كر العصور مستقى خصباً للشعراء وكتاب القصص [1]

* * *

لم تمض أشهر قلائل حتى وضع مشروع جديد لزواج لوكريسيا ، وكان اسكندر السادس يتجه يومئذ نحو مملكة نابل ، ويلتمس وسيلة لبسط نفوذه عليها ؛ وكان يرى هذه الوسيلة فى تزويج ابنه شيزارى من ابنة فردريك ملك نابل ؛ ولكن ملك نابل أبى أن يزوج ابنته « لقس ابن قس » بيد أنه ارتضى أن يتخذ ابنة البابا زوجة لألفونسو ولد أخيه غير الشرعى ، وعقد الزواج الجديد فى قصر الڤاتيكان فى يولية سنة ١٤٩٨ ؛ وكان الزوج الجديد فتى حدثاً لا يجاوز السابعة عشرة ؛ وكان جميلاً ، حلو الشمائل ، تصفه الرواية المعاصرة بأنه أجمل فتى فى رومة ؛

(١) هذا مايقوله العلامة فونك برنتانو فى كتابه عن لوكريسيا وعصرها Lucrèce Borgia (p. 60) وسنعود الى هذا الكتاب بعد

وكانت لوكريسيا عندئذ فى الثامنة عشرة ؛ ومنح الفونسو دوقية بيزيليا ، وغدت لوكريسيا دوقة بيزيليا ؛ واشترط أن يقيم الفونسو مدى عام فى رومة ، وألا تغادر لوكريسيا رومة إلا بعد وفاة أبيها ؛ وشغفت لوكريسيا بزوجها الفتى النضر ، وعاشت مدى حين فى نوع من السعادة والسلام

ولكن هذه السكينة لم يطل أمدها . ذلك أن اسكندر السادس ألفى فرصة جديدة للعمل السياسى ؛ وكان ملك فرنسا الجديد لويس الثانى عشر يتوق إلى التخلص من زوجته چان دوقة برى ، والتزوج من الدوقة حنه أرملة سلفه شارل الثامن لكى يستطيع أن يضم إمارتها بريتانيا إلى مملكته ؛ وكان لا بد له لاجزاء الطلاق من مرسوم بابوى ؛ فرأى اسكندر السادس أن يجيز هذه الرغبة ، وبعث ولده شيزارى إلى فرنسا ، ليلقى صيغة الطلاق ، فاستقبله ملك فرنسا أعظم استقبال ، وأنعم عليه بلقب دوق ڤالنتنوا ؛ وعندئذ خلع شيزارى ثوبه الدينى ، وزوجه لويس الثانى عشر من أميرة فرنسية هى شارلوت دالبير أخت ملك ناڤار ؛ وبذلك وثقت أواصر التحالف بين فرنسا والفاتيكان ، وكلاهما خصم لمملكة نابل وكلاهما يدعى فيها حقوقاً

وهنا فكر شيزارى فى التخلص من زوج أخته الجديد إذ غدا يراه عقبة فى سبيل مشاريعه ؛ وشعر الفونسو دوق بيزيليا بحرج مركزه فى الفاتيكان إزاء تطورات الحوادث على هذا النحو ، وخشى بالأخص غدر شيزارى وعدوانه ، ففر من رومة والتجأ إلى آل كولونا فى جينازارو ، تاركا زوجه الفتية حاملاً تبكى فراقه ؛ واستمر يكاتب لوكريسيا ويتوسل اليها أن تلحق به ، ولوكريسيا مستسلمة إلى حزنها لا تجرؤ على تلبية دعوته . فلما رأى البابا يأس ابنته ، فكر فى وسيلة للجمع بينها وبين زوجها ، لا تؤذى كرامته فى نفس الوقت ، فعين ابنته حاكمة لسبوليتو ؛ وسافرت لوكريسيا إلى سبوليتو مع أخيها الأصغر چوفروا ؛ وهنالك لحق بها زوجها ؛ وأقاما هنالك مدى حين حتى هدأت العاصفة ؛ ثم عادا معاً إلى رومة ؛ ولم تمض على عودتهما أيام قلائل حتى وضعت لوكريسيا غلاماً سمى رودريجو باسم جده البابا رودريجو بورجيا (٣١ أكتوبر سنة ١٤٩٩)

واحتفل البابا بمولد حفيده فى حفلات شائقة ، وغدت لوكريسيا كأنها ملكة رومة يحف بها الحب والعطف والاجلال أينما حلت ؛ وأقطعها والدها حكم عدة مدن وجهات من أملاك الكرسى الرسولى

ولكن القدر المروع كان جاثماً يتربص . ففى مساء ١٥ يوليه سنة ١٥٠٠ ، بينما كان الفونسو دى بيزيليا زوج لوكريسيا يصعد درج الفاتيكان المفضى إلى الجناح البابوى ، إذ فاجأه عدة رجال مقنعين وأثخنوه طعناً بالخناجر حتى خر صريعاً يتخبط فى دمه ؛ ثم فر الجناة دون أن يراهم أو يظفر بأثرهم أحد

ولكن الفونسو لم يمت على الأثر ؛ بل استطاع أن يجرجر نفسه حتى الجناح البابوى ؛ وهناك تلقاه البابا ولوكريسيا فى دهشة وانزعاج ؛ وأغمى على لوكريسيا وأصابتها الحمى ؛ وحمل الجريح إلى إحدى القاعات ، ولزمته زوجه تعنى به ؛ وأقام البابا حرساً خاصاً على غرفته ؛ وأخذ يتماثل إلى الشفاء سريعاً

ولم يك ثمة ريب فى مدبر هذه الجريمة الشنعاء ؛ فقد كان شيزارى ؛ وكان يرى بعد أن رزقت أخته بهذا الغلام ، أنه لا سبيل إلى فسخ زواجها ، وأنه لا سبيل إلى التخلص من الفونسو غير الجريمة ، ولما لم تحقق هذه الجريمة الأولى غرضها ، قرر شيزارى أن يعيد الكرة ، فدخل ذات يوم إلى حيث يرقد الجريح ومعه ميشليتو وصيفه وساعده الأيمن فى مشاريعه السوداء ؛ وأبعد أخته عن غرفة زوجها ، وأمر ميشليتو فأجهز على الفتى الجريح خنقاً

هكذا يقول لنا بوركارت مدير التشريفات البابوية فى مذكراته . بيد أن شيزارى لم ينكر الجريمة بعد أن حققت غايتها ؛ وكان يقول إن الفونسو كان يزمع قتله فسبقه هو إلى القصاص . ولم يفه البابا بكلمة احتجاج أو تذمر خشية بطش ولده الأثيم

أما لوكريسيا الزوجة الثاكل ، والأم الأرمل ، فلم تستطع البقاء فى رومة ، وذهبت باذن أبيها تجرجر أذيال الحزن والعزلة فى قصر نيبى على مقربة من سبوليتو ، وهنالك فعل النسيان فعله سريعاً ، فلم يمض عام حتى استعادت الأرمل الفتية كل بهجتها ،

وعادت مسرعة إلى رومة تخوض غمار هذه الحياة العنيفة الباهرة التى كأنما خلقت لها

* * *

وفى يوليه سنة ١٥٠١ ، غادر اسكندر السادس رومة على رأس حملة عسكرية ليتم الاستيلاء على بعض المناطق والحصون المجاورة للولايات البابوية والتى يزعم للكنيسة حقاً فى انتزاعها ، وهنا وقع حادث فريد فى نوعه ومغزاه . ذلك أن اسكندر السادس انتدب ابنته لوكريسيا للقيام بالشؤون البابوية أثناء غيابه ، ويقول لنا بوركارت إن قداسته « عهد بالقصر كله ، وتصريف الأمور الجارية إلى ابنته السيدة لوكريسيا ، وفوض اليها أن تفتح كل الرسائل التى ترد لقداسته ، وأن تستعين فى المسائل الصعبة برأى كردينال لشبونه » وفى ذلك ما يدل على تقدير خاص من البابا لمواهب ابنته ومقدرتها على الاضطلاع بمهام الأمور . والواقع أن لوكريسيا بورجيا كانت فتاة وافرة العقل وافرة الذكاء ، تتبع سير الشؤون العامة بدقة ، وتفهم بالأخص آراء والدها واتجاهاته المختلفة ؛ وكانت عند ثقة أبيها حيث قامت بمهمتها زهاء شهرين بفطنة وذكاء

ثم عاد البابا إلى رومة ، واستأنف بلاط الفاتيكان حياة البذخ والحفلات الشائقة ، وكانت لوكريسيا يومئذ قد ناهزت عامها الحادى والعشرين ، واكتملت زهرة شبابها وجمالها

وهنا ، وفى تلك الفترة ، تقدم لنا الروايات المعاصرة ، أغرب الصور وأروعها عن تلك الحياة الأثيمة الفاجرة التى كانت تنتظم وراء جدران الفاتيكان ، وتخوض لوكريسيا بورجيا غمارها إلى جانب أبيها الحبر المتهتك وأخيها الطاغية الفاجر

ومن ذلك تلك الحفلة الراقصة الشهيرة التى تفيض فى تفاصيلها روايات العصر وتسميها « مرقص الكستنة » والتى كانت مسرحاً لأسفل ما يتصور الذهن الخليع من مناظر التهتك والفحش

ويقول لنا بوركارت فى مذكراته إن تلك الحفلة الشهيرة كانت فى مساء ٣١ أكتوبر سنة ١٥٠١ ؛ وفيه استقدم البابا خمسين غانية من أجل نساء رومة ؛ ومثلن جميعاً عاريات أمام البابا وابنه شيزارى وابنته لوكريسيا ، وقمن بأخس المناظر الراقصة والجنسية التى يمكن تصورها ؛ ومن ذلك أنهن كن يركضن عاريات على أربع وراء حبات الكستنة التى كان يلقيها البابا وابنه وابنته تحت الأضواء الساطعة ، وتعطى الجوائز للسابقات ، كما تعطى لأبرعهن فى عرض أخس المناظر والأوضاع

هذا مايرويه بوركارت مدير التشريفات البابوية فى مذكراته الشهيرة بأفاضة مثيرة تحمر لها الوجوه وتندى الجباه حياء وخجلاً ، وهذا ما ترويه معظم الروايات والتواريخ المعاصرة مع فرق فى بعض الوقائع والتفاصيل

كانت هذه الحفلات والمناظر الشائنة تتكرر وراء جدران الجناح البابوى فى الفاتيكان ؛ فى تلك الأبهاء الشهيرة التى أنشأها اسكندر السادس ، وأفاض عليها أقطاب الفنانين والمصورين أروع بدائعهم ، والتى مازالت تعرف حتى اليوم « بجناح آل بورجيا » وتعرض لأنظار السائح المتجول ، فيحمله التأمل والخيال إلى تلك الأيام والذكريات المرحة البعيدة ؟

(للبحث بقية) **محمد عبد الله عنان**

(النقل ممنوع) المحامى

الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

الخرافة حليفة الجهل ، وأليفة الأوهام ، عنوان ناقصى الثقافة ، ورمز ذوى العقول الضعيفة ؛ كالحشرات الدنيئة ، لايحلو لها العيش إلا فى الأماكن المظلمة ، أو كالحشائش الضارة ، لايعظم نموها إلا فى التربة الفاسدة ؛ تقف فى طريق الحق ، وتقاوم كل تفكير . وكأنها ذات قوة سحرية تغشى الأبصار ، وتصم الآذان ، وتقضى على كل مافى المرء من عقل وروية ؛ أو كأنها مظهر لوحى خفى يستولى على النفوس والأفئدة . وكيف لا والسحر خرافة لبست ثوب الفن ؟ والخرافات فى أغلبها اكتست بكساء الدين ، لذلك لبى نداءها معتنقوها ، ونزل عند ارادتها من آمن بها ، ولو أدى ذلك إلى ارتكاب جرائم شنيعة ، وازهاق أرواح بريئة ، وتبديد ثروات طائلة . وكم باعدت الخرافة بين الصديق وصديقه ، والمرء وزوجه ، والأخ وأخيه ، والابن وأبيه . وقد لايقف عدوانها عند الأحياء ، بل يتعداهم إلى الأموات ، فخربت من جرائها قبور ، وانتهكت حرمات . وبذا كانت من أشد أخطار الانسانية وأكبر أعداء الحضارة والمدنية . وما أصدق مونتيسكيه (Montesquieu) حين يقول : « أعد نفسى أسعد الأحياء إذا استطعت أن أبرىء الناس من خرافاتهم (١) »

بيد أن الخرافة ليست شراً كلها ؛ ففى حجرها درج العلم ، وتحت كنفها نما كثير من النظم الاجتماعية . فالعلوم فى نشأتها كانت سلسلة خرافات متصلة ، وطائفة غير ملتئمة من الظنون والأوهام ؛ وما الكيمياء الحقيقية إلاوليدة الكيمياء الصناعية (٢) وما الفلك فى قواعده وأصوله إلا ربيب العرافة والتنجيم ، وما الطب إلا نتيجة وصفات بلدية هذبت ، وتجارب عادية سلك بها سبيل البحث والتمحيص (٣) ؛ وما طبيعة اليوم المملوءة بالأصول والقوانين إلا الثمرة الناضجة للآراء الخاطئة المشحونة بالأوهام والخزعبلات ، والتى أدلى بها فلاسفة الأغريق الأول أمثال طاليس وأنكسمندر (١) . والحكومة فى سلطانها ، والأسرة فى نظامها ، والملكية فى احترامها مدينة للخرافة إلى حد كبير : فالملك مسموع الكلمة مطاع الأمر ، لأن الخرافة شاءت قديماً أن تضمه فى صف الآلهة والأرباب ؛ والزواج محترم لأن الزنا والفسوق ماكانت لتغضب الله والناس فقط ، بل ربما استتبعت هلاك الحرث والنسل وخراب القرى والأمصار ؛ والملكية مقدسة لأن الاعتداء عليها كان يثير غضب المردة والشياطين والقوى الخفية المتصرفة فى هذا العالم (٢) ؛ وإذا بحثنا عن منشأ كثير من عاداتنا الاجتماعية وجدناها ترجع إلى أصل خرافى : فتفضيل اليد اليمنى على اليد اليسرى يفسر فى غالب الظن مبدأ من مبادىء السحر والشعوذة ؛ والعطلة الأسبوعية التى ننعم بها الآن لم تكن إلا لأن الانسان اعتقد أن هناك أوقات نحس وأوقات سعادة (٣) وفوق هذا وذاك فالخرافة تغذى ناحية نفسية لايصح تجاهلها ، ذلك لأن الانسان لايلبى داعية العقل والمنطق فقط ، بل هو خاضع لخياله وعواطفه . وللخيالة ميادين تسبح فيها ، وعالم يتفق مع ميولها وأهوائها ؛ وما الخرافة إلا مظهر من مظاهر هذا العالم وأثر من آثار هذا الصنع ، وحياة لاتعتمد إلا على الأسس الطبيعية والبراهين العقلية — كما ينادى بها أصحاب الرواق — جافة قطعا ولا وجود لها إلا فى أدمغة زينون وكريزيب

ليس هناك شك فى أن الانسان مستعد بطبعه لقبول الخرافة ؛ فهو ميال دائماً لأن يعرف أكثر مما يرشده اليه بصره وعقله ، ولأن يخلق بجانب الحقائق الحسية والفكرية صوراً أخرى تحقق رغبة من رغباته ، أوتسد ناحية من نواحى نقصه (٤) . هذا إلى أنه فى ضعفه يحاول أن يعتز بقوى خفية — وإن تكن خيالية — فى التغلب على مشاق الحياة . ومن هنا كان التعلق بالخرافات عالمياً ، وكان قدر منها مشتركا لدى عامة الشعوب . فالسحر والتنجيم والشعوذة من خرافات الانسانية بأسرها ، قام عليها معظم تقاليد الأمم المتوحشة ، وتشبث بها الناس بعد أن خطوا خطوات

(1) cité par S. Reinach dans la Tâche de psyché, XI.

(2) Pattison, The Story of Alchemy and the Beginings of Chemistry, London, 1902.

(3) Hesse et Gleyze, Notions de Sociologie, 252 et suiv.

(1) Rey, La jeunesse de la sciensa grecque, 19 et suiv.

(2) Frazer, La Tache de psyché, Paris, 1914.

(3) Encyc. Britannica, XIVe ed., T. 21, p. 578.

(4) Encyc. of religion and ethics, vol. 12, p. 122.

فسيحة فى سبيل العلم والمدنية ، ولا يزالون خاضعين لشىء من سلطانها إلى اليوم . وحديث القصور الزبرجدية والأرائك المسجدية التى بناها المردة والشياطين فى أرض نائية وجزر منقطعة ، بهر الانسان الهمجى وشغل عقول بعض أبناء القرن العشرين [١] . والتفاؤل والتشاؤم والطيرة كانت من خرافات الأغريق والرومان والعرب ، وحتى الساعة يقول عامتنا : « خذوا فالكم من قبالكم » ، وإذا سمعوا نعيق غراب رددوا الجملة المشهورة : « اللهم اجعله خيراً » . وبديهى أن انتشار الخرافة يختلف من بلد لآخر تبعاً لدرجة الثقافة ، ونمو التربية الدينية ، وطرق الحكم السياسية من ديمقراطية واستبدادية ، ولظروف اجتماعية أخرى متعددة . ويحاول بعض الباحثين أن يعقد موازنات بين الأمم فى هذا المضمار ، فيزعم مثلاً أن المشاهد السينمائية فى انجلترا وفرنسا تؤذن بأن الشعب الانجليزى إلى الغريب أميل ، وفى الخرافة أرغب . وهذه الموازنات وإن تكن مثار شك كبير ، ربما وصلت إلى نتائج شيقة إن عنى بضبطها وصحتها . وإذا كنا نتحدث عن الأفراد والشعوب واستعدادهم لقبول الخرافة ، فيجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة هامة ، وهى أنه لا يوجد شخص يسلم بالخرافة التى يعتنقها فى حين أنه متيقظ دائماً إلى خرافات الآخرين . وقد يصل بنا الأمر إلى أن نقيس الشىء الواحد بمقياسين مختلفين ، وننظر اليه بمنظارين متباينين ، فان كان مما عرفناه وألفناه أضحى ديناً وعقيدة ؛ وإن اتصل بتقاليد غريبة عنا استنكرناه وتبينا ما فيه من تضليل وتخريف : وكأن ما هو دين فى رأيك خرافة فى رأى غيرك وبالعكس [٢] ؛ وعل ذلك راجع إلى أن الخرافة تسلب معتنقها قوة النقد والحكم الصحيح ؛ هذا إلى أنها نسبية وصعبة التحديد : فما كان عقيدة بالأمس أصبح خرافة اليوم ؛ وما هو صواب شرق جبال البرانس يعد خطأ غربها ؛ ومقياس الخرافة — كمقياس الحق والباطل — يتغير بتغير الظروف والأزمنة

يعز علينا حقيقة أن نعرّف الخرافة تعريفاً شاملاً ، وأن نضع لها حداً ثابتاً . فلا يمكننا أن نقول إنها كل ما خالف العلم الصحيح ، فان هذا العلم نفسه لما يحدد تماماً ؛ على أنه قد يقصد أموراً يصعب علينا أن نخرج بها عن دائرة الخرافة . فكثير من المثقفين يؤمن اليوم بتحضير الأرواح ، ويجتهد فى أن يفسره تفسيراً علمياً . ولا نستطيع أن نقول إن الخرافة كل ما ناقض الدين ، فان هناك أشياء اكتست بكساء دينى كامل فى حين أنها خرافة صريحة . وفى شىء من التقريب يمكن القول بأن الخرافة كل فكرة أو عقيدة فردية أو جمعية تفسر ظواهر العالم على نحو لا يلتئم مع العقل ولا مع درجتنا العلمية الحاضرة . وعل فى سرد بعض الأمثلة ما يعيننا على تفهم الخرافة فى حقيقتها ومدلولها . من ذلك أن بعض الأوروبيين يرى أن كب الملح نذير سوء . وأن اجتماع ثلاثة عشر شخصاً على مائدة واحدة مؤذن بأن واحداً منهم سيموت فى العام نفسه ، وأن تقديم السكين يقطع المودة ، وأن وضع المكنسة فى الماء مجلبة للمطر . وخرافاتنا المصرية التى هى ميدان فسيح للدراسة غير متناهية العدد ؛ ومن أشهرها حديث « الشهامة » وربعاء أيوب وأكل البصل أيام شم النسيم ، وصناعة التبخير أو « الزار » والرقى والتعاويذ . وعبثاً نحاول إن شئنا أن نأتى هنا على مختلف الخرافات العالمية أو المصرية . وفى مقدورنا أن نلاحظ بوجه عام أن الخرافات تكاد تتمركز حول نقطتين هامتين : المعتقدات والعبادات الدينية ؛ وهذا ما سماه الألمان Aberglanbe

لقد شغل الباحثون بالخرافة منذ زمن بعيد ؛ فبينوا مضارها السياسية والدينية والاجتماعية ، وعملوا على إحصاء الخرافات المتعددة وإثباتها فى قواميس خاصة (نذكر من بينها : le Dictionnaire infernal) ، وتقسيمها إلى فصول وأنواع مختلفة [١] . ومن أقدم من كتب فى هذا الباب ؛ لكريس Lucrèce + 51 ov-j-c. وفلوطرخس 125 + Plutarque والأخير بوجه خاص هو أول باحث درس الخرافة فى شىء من التوسعة ونقدها نقداً مراً ؛ وربما كان متأثراً فى ذلك بما ساد عصره من خرافات لا حصر لها [٢] إلا أن الفضل فى دراسة الخرافة دراسة علمية منظمة يرجع إلى علماء الاجتماع المحدثين الذين تولوها بالشرح والتحليل . فبحثوا عن أصلها ، وسبيل انتشارها ، وأثرها فى المجتمع ، وطريق علاجها . وكان لهم فى ذلك مؤلفات قيمة جذابة تخص بالذكر

(1) Larousse, voir superstition.

(2) Encyc. of religion, vol. 12, p. 120.

(1) La grande Encyc., T. 30, p. 717.

(2) Masson, Lucretius, Epicurian and Poetics, London, 1907. — Plutarque, de Supertitione, bonne tr. ang. par P. Holland, 1603.

منها كتاب فريزر الذى سنعرض له بالتفصيل فى فرصة مقبلة إن شاء الله [(١)]

إذا تصفحنا التاريخ وجدنا الانسانيـة نشأت حاملة معها خرافاتها . فالأمم المتوحشة الأولى خضعت للخرافة خضوعها لدين ثابت وأصل مقرر ؛ ولا زلنا نرى أثر هـذا الخضوع لدى القبائل الهمجية المعاصرة . وإذا جاوزنا هذه الأمم الى الشعوب التى أخذت من الحضارة بنصيب ، لاحظنا أنها تعلقت بقسط وافر من الأوهام والخزعبلات . وخرافات قدماء المصريين أعرف من أن ينوه عنها . والأغريق الذين بهروا العالم بعلمهم وثقافتهم لم يكونوا أقل اعتناقاً للخرافة من غيرهم ، وتاريخهم الديني مجموعة خرافات سخر منها فلاسفتهم غير مرة . وربما كان اللاأدريون les Sceptiques من أول من رفع الصوت جهرة فى وجه الخرافة والانقياد الأعمى ، ودعا الى تحرير الفكر الانسانى [(٢)] . كذلك حاربت الديانات السماوية بعض الخرافات وقضت عليها . غير أن رجال القرون الوسطى عادوا — تحت تأثير الجهل وعاطفة دينية عمياء — فارتطموا فى بؤرة الخرافة ، وتفننوا فيها أيما تفنن . ثم جاء عصر النهضة والاصلاح الدينى فسلكا بالعقـل الانسانى مسلكا جديداً وأثارا على الخرافة حرباً شعواء . ولا تزال العلوم الحديثة تنكل بها يوماً بعد يوم ، وتطاردها فى كل مكان

والآن يحق لنا أن نتساءل هل الخرافة فى سبيل الانقراض ؟ وهل تأمل الانسانية أن تتخلص منها بتاتاً ؟ ليس بيسير أن نجيب إجابة شافية على السؤال الأول ، فان الاحصاءات فى هذا الميدان ناقصة وغير دقيقة ؛ والخرافة ، وقد تمكنت من نفوسنا وأضحت جزءاً من عاداتنا وتقاليدنا ، صعبة التمييز وكثيراً ما بدت بمظهر الشيء المعقول والمسلم به . ولـكن مما لاشك فيه أن الفكر الانسانى تبرأ من خرافات كثيرة كان يرزح تحت نيرها آباؤنا الأقدمون . وكلما بسط العلم نفوذه بدد غياهب هـذه الترهات والأباطيل ، فهو من الخرافة كالنور من الظلمة يكشف دخيلها ويبين ما اشتملت عليه من خطر وأضرار . ومع هذا يخيل الينا أنه لن يتمكن من انتزاع جرثومتها والقضاء عليها تماماً ، وستبقى الخرافة مابقى الانسان لتسد حاجة من حاجاته النفسية والاجتماعية . وها هى ذى خرافة تفنى لتحل محلها خرافة أخرى ، فلئن بادت الخرافات الوحشية لقد أعقبتها خرافات حضرية . على أنه ليس ثمت ضير — على ما يظهر — فى أن تتعلق أمة من الأمم بقدر محدود من الخرافات ، فان فشت الخرافة وسدّت طريق التفكير والحـكم الصحيح فهنا الداء القاتل والخطر المحدق

وكأنى بهـذه الحال تنطبق تماماً على ما يعانيه بلدنا اليوم . فنحن فريسة للخرافة فى طعامنا وشرابنا ، فى ملبسنا ومسكننا ، فى حركاتنا وسكناتنا ، فى مختلف عاداتنا وتقاليـدنا ، بل وفى آرائنا ومعتقداتنا ، وكثيراً ما وقفت الخرافة عقبة كأداء فى طريق تقدمنا العقلى والجسمىّ ، والخلقى والاجتماعى . وفى رأينا أن خرافاتنا المتفشية ترجع الى أسباب كثيرة أهمها :

(١) طريقـة الوعظ والارشاد والتربية الدينية الفاسدة ، (٢) حياة القهر والاستبداد ، (٣) الفقر (٤) والجهل . لقد سلـكت طائفة من وعاظنا مسلـكاً خاطئاً للغاية ، وأرسلت لنفسها العنان — طمعاً فى الترغيب أو الترهيب — فى سرد خرافات يأباها العقل والدين ، وخاصة ما اتصل منها بالحشر والنشر واليوم الآخر وعمدتها فى ذلك مجموعة ضارة من كتب القصص والتفسير الملوءة بالاسرائيليات والآثار الضعيفة أو المكذوبة . وكأن علم هؤلاء الوعاظ خرافة كله ، أو كأنهم يحيون على حساب الخرافة فهم يثبتون دعائمها ويبالغون فى نشرها . وليست حياة القهر والاستبداد بأقل أثراً فى نشر الخرافة من هذا الوعظ الفاسـد ، فالمغلوب على أمره يبحث عن قوى خفية يزعم أنها تعينه على التخلص مما هو فيه . كذلك تمنى الخرافة الفقراء بأحلام ذهبية وآمال خلابة ، وتسبغ عليهم من الخيال ما عجزت الحقيقة عن الوفاء به . ويحرم الجهل أخيراً عامة الناس من أن يفتحوا أعينهم للضياء ، وقلوبهم الرجاء ، لذلك كانت الخرافة والجهل نوعين متلازمين ، وأخوين لا ينفصلان ، وقديماً قالوا : الخرافة عمياء تخشى ما تحب ، وتحب ما تخشى . وإذا كنا قد شخصنا الداء فلنعالج أسبابه الدفينة وعوامله الخفية وحذار أن نحارب الخرافة وجهاً لوجه ونقتصر على تسفيه أحلام معتنقيها ، فانه قد يكون أيسر أن نصرف الملحد عن إلحاده من أن نحول المخرف عن خرافته .

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(1) Frazer, L'avocat du diable ou la Tache de psyché, tr. fr., Paris, 1914

(2) Bevan, Stoics and Sceptics, London, 1913.

حول الأوزاعى «ثانياً»

للأستاذ أمين الخولى

المدرس بكلية الآداب

كنت كتبت فى العدد ٩١ من الرسالة ، كلمة عن الأوزاعى ، قصدت فيها أول ما قصدت إلى ملاحظات فى أسلوب تفكير الكاتب ، وعرضت فى ذلك لأنكاره تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى فى الشام . ودار حول ذلك كلام ، آخره ما كتبه الأديب الفاضل صالح بن على الحامد العلوى فى العدد ٩٧ من الرسالة ، تحت عنوان : « هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى أو الحقيقة هى العكس » ؛ وإنى أشكر لحضرته غيرته الدينية ، وجميل أدبه فى نقاشه ، ثم أعود إلى الموضوع من الناحية التى عرضت له منها أول ما عرضت : ناحية أسلوب التفكير ، وصحة الانتقال والاستنتاج .

ويبدو لقارئ مقال الأديب السنغافورى أنه متأثر بمقال نشر فى مجلة النهضة الحضرمية بعنوان : « من أين أخذ الأفرنج قوانينهم » وقد نقل منه قدراً كبيراً . ولعله يسر حضرته أن أبلغه أن هذا الموضوع نفسه نشر فى مصر — وربما بنصه — منذ ربع قرن مضى ، ملحقاً بكتاب مقدمة القوانين للأستاذ عبد الجليل سمد ، وقد طبع سنة ١٩١٠ م . وقرأت هذا الموضوع منذ بضعة عشر عاما ، ولا أزال أذكره جيداً ، ومع ذلك كله قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى تلك الكلمة المتواضعة العلميـة وهى : مع عدم تعصبى للقول بهذا التأثر ، ومع القصد فى بيانه فانى أرى هذا الاستدلال على عدم تأثر الأوزاعى غير مقبول من الوجهة الاجتماعية والنفسية . . الخ » ولا أزال أقول للكاتب إن ما نقله عن مجلة النهضة الحضرميـة لا يؤثر فى هذا الرأى كما لم تؤثر فيه قراءتى لهذا الموضوع فى مصر منذ عهـــد بعيد ؛ ولا أجمل موضوع الأخذ أو التأثر هنا محل بحث جديد ومناقشة على صفحات مجلة سيارة ، لأنه أوسع من ذلك وأعمق ، ولأن ملاحظاتى لا تتوقف عليه ، كما لن أعمد فى تعليق على ذلك المقال إلى الاطالة والاسهاب نزولا على حكم الوقت الضيق الآن ، ثم نزولا على حكم البيئة ، إذ لا أرى قراء الصحف الأسبوعية ينشطون لتلك المناقشة الفنية الطويلة . وسأكتفى بأن أضع بين يدى السيد العلوى والقراء ما أراه موضع ملاحظة فى إجمال تام .

١ — قال السيد : ومهما قلنا بالفرق بين الأخذ والتأثر فكلا المعنيين يجريان إلى مدى واحد ، وهو أن يكون فى أصل الفقه الاسلامى ومزاجه شيء من الفقه الرومانى » ، ومع صرف النظر عن مسألة الفقهين لا نرى محلا للتسوية بين التأثر والأخذ هذه التسوية ، لأن التأثر قد يكون سلبياً صرفاً ، فنقول إن الوثنية العربية قد أثرت فى تحريم الاسـلام للتصوير والنحت ، ولن ينتهى هذا إلى أن فى مزاج الاسلام وأصله شيئاً من الوثنية الجاهلية . والنظر يقضى بأن التأثر السلبى قد يكون أقوى أنواع التأثر وأشدها ، فلا محل للتسوية بين التأثر والأخذ .

٢ — وقال : إن الاسـلام فى ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبى الأمى الذى نشأ أبعـد الناس عن أن يطلع على قانون رومانى أو حكمة منقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل التناقض لما عليه قومه ، . . . الخ . وغريب هذا القول من السيد ، لأنه لا يصح إلا على تقـدير أن هذا الدين من صنيع الرسول نفسه ، وهو أمى . . الخ فعمله ناقض لقاعدة البيئة والثقافة ، أما على أن الاسلام — كما هو فى حقيقته — وحى إلهى فلا يستقيم هذا التمثيل مطلقاً فى نقض قاعدة البيئة والثقافة ، لأنا لم نقل إن الله خاضع للبيئة والثقافة ، بل نقول إن الله أجرى الحياة على نواميس منها تأثير البيئة والثقافة . . الخ . وعلى وفق هذه النواميس جاء الاسلام العرب موافقاً لحالهم معالجاً لأمراضهم ، جاريا على أسلوب تعبيرهم محكما له فى فهم القرآن الكريم دستور العربية ، ولو لم يجيء الاسلام بحيث تتقبله النفوس العربية ، وتفهمه العقول العربية لكان عبثاً — تعالى الله عنه — ولم يعش ولم ينجح .

٣ — وقال : « إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة ، أو بعبارة أصح جاءت فى زمن واحد ، . . الخ » وهذه العبارة أوضح من أن تحتاج مخالفتها إلى دليل ، ويتجلى ذلك فى قوله بعد ، « وهيأ لنا شريعة كاملة وقانونا ربانياً منظماً يصلح لأن يطبق على أى جيل وعلى أية أمة ، ولم يزد فيه الفقهاء بمـده شيئاً قط

إلا تصنيفه ونقله . . . » فهذا الكلام ليس أحسن حالا من سابقه ، فالفقهاء قد فهموا وطبقوا ، واستنتجوا واستنبطوا ، وخلفوا كل هذا المجهود الفقهي الكبير الهائل مبنياً بيدهم على الأصول العامة التي جاء بها الوحي ، ولم يكونوا مصنفين وناقلين فقط ، على أن حضرته يقول « . . . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي » وهذه العبارة بنفسها ينقضها هو في الصفحة ذاتها حين يقول عن القرآن : « على أن الاختلاف في تفسيره . . . ليس إلا لايجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية » فان هذا الايجاز المعجز لم يفت آيات الأحكام كذلك ، وبعد المرامي يشملها أيضاً ؛ وإذا كانت النصوص صريحة بينة الأغراض واضحة المرامي ففيم اختلف فقهاء المذاهب الكثيرة المتعددة ، وفيم اختلف فقهاء المذهب الواحد في الزمنين المختلفين ، وفيم تغايرت الأحكام في المسألة الواحدة هذا التغاير البين ؟ والطريف في ذلك أن السيد يمثل لهذه الصراحة والوضوح بقولك مثلا لا تكذب ، وأنه ليس معناه إلا لاتخبر بغير الواقع في كل زمن ومكان ، وفات السيد أن هذه المسألة الخلقية نفسها على وضوحها الشديد عنده محل خلاف طويل تعدى حتى إلى كتب البلاغة ، فقيل الصدق مطابقة الخبر للواقع ، وقيل مطابقته للاعتقاد ، وقيل مطابقته للواقع مع الاعتقاد ؛ وعلى هذا يختلف كذلك تفسير الكذب ، فبدا لو كان الأمر من السهولة والصراحة والوضوح على مثل ما يراه السيد .

٤ — ويقول حضرته في النصوص الفقهية « . . . أما الأغلب منها فمن الحديث والسنة ، وبعضها عن الكتاب مفسراً بالسنة » ولا نعرف وجهاً للحكم بأن أغلب النصوص من السنة لا من الكتاب ، ولا يفهم أن الأغلب ما هو من السنة والكتاب معاً إذ ليس هناك مصدر للنصوص سواهما .

٥ — ويقول « ولا يجوز أن يقاس الفقه بالتفسير » ولا أدري كيف لايقاس الفقه بالتفسير في الاختلاف والفقه ليس إلا تفسير آيات الأحكام ! !

وعندي أن الكاتب الفاضل يحسن أن يعدل رأيه في هذه الأشياء قبل أن يهتم بمسألة الفقه الروماني وأخذه أصوله عن الفقه الاسلامي ، أو تأثر الفقه الاسلامي به ، فتلك مسائل متأخرة

* * *

ويلي ذلك في مقال السيد ما نقله عن مجلة النهضة الحضرمية وأشرت إلى أنه منشور في مصر منذ زمن طويل ؛ وقد وعدت ألا أحمله ولا أحمل القراء مؤونة مناقشته — على كثرة مواضع ذلك فيه — وإنما أقول للسيد إن كلمتي في التأثير والتأثر لا تتوقف على البت في تاريخ أصول القانون الروماني الحديث ، وإنما ترجع إلى مسلمات لا محل لاختلافنا فيها : تلك هي أن الرومانية حكمت الشام قطعاً ، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعا ، وكانت الدولة الرومانية وحكمها للشام قبل الاسلام قطعا ، وكانت الدولة الرومانية التي ورثت حضارة اليونان نظم للحكم قطعا ، وكانت لها شرائع مدنية وعسكرية ومالية قطعا ، وكان الاسلام هو الذي خلف على ذلك كله بلا شك ، — وكان لهذا على طول الزمن أثره الذي تختلف به الشام عن الحجاز مثلا ولا بد ، والأوزاعي ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية ، فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرها المحتوم في تكوين الأوزاعي ، ولهذا التكوين أثره في فهم الكتاب والسنة والاستنباط منهما — ولا يتوقف شيء مما قلنا على درجة رقي الفقه والنظام الروماني ، ولا على أن الحديث منه مسروق من الاسلام أو مقتبس منه أولا .

لكني حينما أترك هذا المقال في الفقه الروماني الحديث دون مناقشة لا أدع منه عبارة ختامية للسيد في مقاله ، تلك هي قوله « . . إن الفقه الروماني جديد لفقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الاسلامي ، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم » . بل أقول للسيد لسنا في شيء من المطالبة بهذه العقيدة في الفقه الروماني ، فليست أصول الاسلام ستا ، تلك الخمسة المعروفة ثم سرقة الفقه الروماني من الفقه الاسلامي . وحرام علينا في الدين والعقل أن نعتقد ما نشاء ونلزم بما نشاء ، فدع ياسيدي هذا لمثله من الرأي والبحث . ولا تتوجس خيفة من كل شبح ، ولا تمدن كل رأي دسيسة ، ولا تتهمن كل مسلم بالضعف والانخداع ، فالأمر أخطر من ذلك كله ، وأهون من ذلك كله أيضاً .

أمين الخولي

التربية الخلقية والاجتماعية
فى المدرسة
للأستاذ فخرى أبو السعود

أدخلت الاصلاحات والتغييرات العديدة على أنظمة مدارسنا ، ولكنها كانت دائماً تدور حول طرق تدريس العلوم ومناهجها ، ولم تتجه إلى الناحية الخلقية -- كما أشار اليه صاحب المعالى وزير المعارف فى تقريره عن التعليم الثانوى — والحقيقة التى لا شبهة فيها أن مدارسنا لا تهتم بغير المواد الدراسية ولا تعمل شيئاً فى سبيل تربية أخلاق الطلاب

بل الحقيقة التى يعترف بها الخبير المنصف أن مدارسنا كانت بنظُمها سبباً فى نشر الفوضى الخلقية بين الشبان : لقبولها الطلاب من جميع الطبقات ، ووضعها أبناء الطبقات المحترمة بجانب أبناء الطبقة الوضيعة فى المدرسة الواحدة بلا تمييز ؛ وقد دلّت المشاهدات على أن الطالب المهذب يكتسب أخلاق زميله الوضيع التربية ولا يحدُث العكس ؛ وقد زاد هذا البلاء استفحالاً فى السنين الأخيرة باقبال الطبقة السفلى على تعليم أبنائها لتأهيلهم للوظائف واكتظاظ المدارس بطلابها

مع أن بانجلترا — على عراقتها فى الحرية والديمقراطية — مدارس لاتقبل إلا أبناء الطبقات المحترمة التى تستطيع دفع المصروفات العالية ، فيظل أبناؤها بمنجى من مخالطة أبناء السوقة ، ذلك بأن الحرية والديمقراطية يجب ألا تتعارضا مع الأمر الواقع ، أو تتجاهلا وجود الطبقات المتفاوتة

* * *

لا تعمل مدارسنا شيئاً لتهذيب أخلاق أبنائها مع أننا أحوج من غيرنا إلى التربية الخلقية فى مدارسنا : إذ لا يجد ناشئتنا هذه التربية غالباً فى بيئة غير بيئة المدرسة : فلا فى البيت ولا فى الشارع ولا فى المجتمع : فالتربية المنزلية عندنا ناقصة ، ومعظم الآباء لا يوجهون إلى تربية أبنائهم من وقتهم وعنايتهم ما يجب ، وهم ينقادون لحنانهم الأبوى فيسمحون لأبنائهم بكل ما يريدون وإن تعارض مصلحتهم وجنى على تنشئتهم ؛ وطبقة العامة التى يصادفها الناشئ فى غدواته وروحاته فاسدة تعم فيها رذائل الكذب والغش والقحة وجرأة اللسان مما لامثيل له فى بلد راق ؛ والحجاب الذى فرضته التقاليد على المرأة يحرم المجتمع من اختلاط الجنسين وهو عامل كبير فى تهذيب الخلق وترقيق الطبع وتنمية الذوق وتربية الرجولة الصحيحة

ومصر التى جرّبت فى مراكز الحكم زُمراً من أبنائها لا يشك أحد فى عظيم ذكائهم وكبير مواهبهم وواسع تعليمهم وثقافتهم ، ومع ذلك كانوا عليها سوط عذاب وبثوا فيها فساد الأخلاق ، مصر هذه يجب أن تتنبه إلى النقص الجسيم فى نظم تربيتها ، وأن تعرف جيداً قلة جدوى التعليم بدون التربية الخلقية الصحيحة التى تقوّم الطباع وتبعث الاستقامة وتشعر الفرد بمسؤوليته أمام ضميره وواجبه نحو مجتمعه ووطنه

* * *

فمدارسنا اليوم تجعل واجبها الأول التربية العقلية ، على حين يجب أن تكون التربية الخلقية أول مراميها ، وأن يأتى تزويد الناشئ بالعلوم بعد ذلك فى المحل الثانى : فتختلف برامج التعليم زيادة ونقصاً وتعديلاً كما تدعو الحاجة أو تشير التجارب . ووظيفة المدرسة الخلقية هى هى فى مكانها الأول ، وهى هى الغرض الأسمى من كل تربية وفى كل معهد ، وهى عدة الناشئ وكفيله بالنجاح فى حياته مهما زادت معلوماته أو نقصت أو تنوعت

ومن المسائل المفروغ منها بين المشتغلين بالتربية والتعليم أن التربية الخلقية لا تأتى بالتلقين ولا تكون باستظهار فوائد الفضائل ومضار الرذائل ، وإنما العامل الأكبر فى تشكيل أخلاق الناشئ وتوجيهها إما إلى الحسنى وإما الى الخسران ، هو الوسط الذى يعيش فيه ، والناس الذين يخالطهم فى ذلك الوسط ، والأعمال التى يزاولها فيه كل يوم ؛ فأخلاقنا تنمو نمواً غير مقصود ولا متعمد ولا سيما فى عهد نشأتنا ، وتتشكل بالمحاكاة والاقتداء ومسايرة الغير ، فالطفل الناشئ فى وسط راق ينشأ فاضلاً دون أن تُلقى اليه كلمة واحدة فى مزايا الفضيلة ، والناشئ فى بيئة مسمومة يشب دنيئاً مهما أُسمع من عظات الحكماء ، ووُضع بين يديه من كتب الفضلاء

فاذا هيأنا فى المدرسة للناشئ جواً نقياً صالحاً نمت أخلاقه نقية صالحة دون بذل جهد ما من جانبه أو من جانب المدرس أو

إدارة المدرسة ؛ ولكن جو مدارسنا ليس من النقاء والصلاح بحيث يُنشئ الطلاب تلك النشأة ، ومهما فرَضَ المدرس وإدارة المدرسة بعد ذلك من أنظمة وقواعد وعقوبات فعبثٌ ليس وراءه طائل

فقد تقدَّم كيف يختلط فى المدرســة ابن الأسرة الطيبة بابن الأسرة الوضيعة فَتَسُود الفوضى الخلقية الجو المدرسى ، ثم إن ازدحام ساعات المدرسة بالمواد الدراسية يحول دون توثق الحياة الاجتماعية المدرسية ، ويجعل الطلاب فى حالة من الارهاق والملال تحفزهم إلى التمرد والاخلال بالنظام وإساءة المسلك كلما لاحت لهم فرصة لذلك ، وكل المواد الدراسية تتطلب منهم إجهاد عقولهم وتقييد أبدانهم ، فتنوء عقولهم بالمجهود المتواصل العقيم ، وتضيق أبدانهم بالتقييد ، ويتجمع نشاطهم الجثمانى المكبوح الذى لا يجد منصَرَفاً فى وجهة الخير فينصرف إلى ضروب الفساد والعبث بالنظام ومشاكسة الغير والتفكير فى أنواع الاثم أو اللهو الفارغ

* * *

ومن هذا تتضح الوسائل التى يجب أن تتذرع بها مدارسنا لتربى أخلاق أبنائها ؛ وهى : تنقية الجو المدرسى ، ووضع التربية البدنية فى مكانها الذى هى جديرة به بجانب التربية العقلية ، وتوثيق عرى الحياة الاجتماعية فى المدرسة :

(١) فيجب أن تُراعى طبقة الطالب الاجتماعية قبل أن يُقبل بالمدرسة ، وأن يكون لهذا شأن فى توزيع الطلاب على المدارس بل على الفصول ، وتخصيص مدارس فى البلدان المختلفة لأبناء الطبقات الممتازة والأسر الطيبة . وليس هذا بدعاً : ففضلاً عن وجود هذا التفريق فى انجلترا كما سبق قد كان بمصر ذاتها شىء منه فيما مضى : إذ كانت بعض المدارس كالخديوية والسعيدية تكاد تختص بأبناء الأسر الراقية ، ولكن المدارس التى كانت لها هذه المزية قد فقدتها أخيراً ، وصار بعض المصريين يحجم عن إلحاق الأبناء بالمدارس المصرية مخافة أن يختلطوا بمن لا تحسُن مخالطتهم ويفقدُوا ما شبوا عليه فى بيوتهم من طيب العادات والأخلاق

(٢) وأن تختصر برامج التعليم اختصاراً كبيراً وتقلَّل ساعاتها فى اليوم المدرسىّ ، ويخصص جانب كبير من الوقت للألعاب الرياضية التى يجب أن يمارسها جميع الطلاب فى كل يوم ، فان هذه الألعاب هى أساس كل تربية صحيحة شاملة ترمى إلى تكوين الفرد والمجتمع ، ولا نعلم أمة بلغت شأواً كبيراً من العظمة والرقى فى ماض ولا حاضر إلا كان للتربية البدنية المكان الأول فى تنشئة أبنائها

فرياضة البدن ضرورية لنموه وصحتــه ، وصاحب الجسم الصحيح أقدر على تلقى العلوم وأداء الأعمال ، ونظرته إلى الحياة نظرة تفاؤل وإقدام ورغبــة فى العمل وعزيمة واعتداد بالنفس ، والناشئ الذى ينمو سليم البدن ينمو كذلك سليم النفس مستقيم الطبع متجهاً إلى الخير يُؤثر من أنواع الترويح والاستجمام والسرور ضروب الألعاب الرياضية وصنوف اللهو البرىء ، ولا تنحصر معظم أفكاره فى مسائل الجنس ومرذول العبث كما يرجح أن تنحصر أفكار صاحب الجسم البليد الخامل

من ذاك ترى أن الألعاب الرياضية هى قوام التربية البدنية والعقلية والخلقية ، ويكفى دليلاً على فشل طرق التعليم عندنا أن الزمن المخصص فى المناهج لهذا العامل الحيوى فى التربية هو دون الساعة فى الأسبوع ، وأن تعليم الرياضة البدنية فى مدارسنا منوط بالجنود القــدماء ، وأنها لا تحسب من المواد الأساسية ، وكل أولئك يزيد الطلاب استخفافاً بها

(٣) كذلك يجب أن يُصرف جانب كبير من أوقات المدرسة فى الألعاب والأعمال الجمعية والحفلات لشتى المناسبات : من ابتداء العام المدرسى أو انتصافه أو انتهائه أو توزيع الجوائز أو تكريم أبناء المدرسة أو خريجيها أو زوّارها أو المحاضرات المشوقة الممتعة : ففى قيام الطلاب بتنظيم هذه الجماعات واشتراكهم فيها واهتمامهم بنجاحها خير تربية لأخلاقهم الاجتماعية ، وأحسن تدريب لهم على حسن المسلك بين الجماعة ، وأفضل تهذيب لذوقهم العام ، وهم بأشد حاجة إلى ذلك : فما يقول مطلعٌ منصف إن مسلك شباننا المتعلمين فى أغلب مجتمعاتهم مما يشرّف . فأغلبهم يعوزهم التعقل ، وحسن الذوق ، والتمييز بين مُقام ومَقام ، ومايقال هنا ويفعل ، وما لا يقال أو يفعل هناك ؛ وكثير منهم يعجزون عن استشعار الجد ومواصلة الرزانة فى أمر من الأمور ، وبهم نزعة إلى الهزل لا تقاوَم ولا يكاد يطيب لهم مجتمع حتى يهبطوا به إلى قرار بعيد من التبذل والاسفاف

نعم إن بالمدارس المصرية أنواعاً من الجمعيات العلمية والعملية ،

ولكنها مقصورة على عدد محدود من الطلاب بينما يجب أن تكون شاملة للجميع ، ويُعَدُّ الالتحاق بها أمراً إضافياً على حين يجب أن يكون أساسياً ، وما دامت لا تدخل فى المنهاج ولا يمتحن فى أعمالها الطلاب المرهقون خارجها ببرنامج حافل فانها لا تجتذب إلا القليلين ، وأغلبهم ممن لا يحفلون بالمواد الدراسية وكان يجدر الجمع بين الأمرين

***

فبتطهير الوسط المدرسيّ من أوشاب السوقة ، وإعطاء الرياضة البدنية مقامها اللائق ، وخلق الحياة الاجتماعية الجذابة بالمدرسة مكان الحياة المقفرة المنفِّرة ، تهيئ المدرسة الجو النقى الصالح الذى يبعث الطالب على مكارم الأخلاق ، ويهديه إلى القدوة الحسنة ، ويسمو به إلى احترام النفس والمجتمع ، وبذلك تؤدى المدرسة واجبها الأول ، وتحقق التربية غرضها الأسمى

وهذه بعينها هى السُّنة التى درجت عليها المدارس الانجليزية من قديم ، ولا شك أن المدرسة الانجليزية تفوق غيرها من المدارس ، ولم يبلغ الانجليز ما بلغوا من العظمة بتزويد أبنائهم بمقدار من المعارف أكبر مما يناله غيرهم ، بل بالرياضة البدنية والحياة الاجتماعية المدرسية ، وهذه هى وسيلة التربية الخلقية وهى أداة الكفاح والنجاح فى الحياة للأفراد والأمم . ومن المأثور المشهور قول ولنجتون إن معركة وترلو كُسبت فى ملعب كلية إيتون ، فهو لم يقل إنها كسبت فى حجرات الدراسة أو معاملها ، بل فى الملعب حيث تخرج الرياضة البدنية جسماً سليماً وعقلاً سليماً وخلقاً قوياً وفرداً ينفع نفسه ومجتمعه

الإسكندرية — فوزى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

هراقليوس فى المعبد

البطـــــل*

للأستاذ معروف الأرناءوط

« أى صديق معروف ! إنك لتفعر أشخاص عالمك الذى صغت فى هـذه الرواية البارعة ، بشعاع رقيق ، يحفل بالطيوب واللحون والألوان والصور

إنك لتفيض على كل ما تكتب بركة الحيـــاة والنور ، فالأشكال تتكلم ، والصور تغنى ، والأخيلة تتفتح عن ألوان لماحة كالطيف ، مفترة كالصباح

فهنا حياة كاملة لجيل من الناس تنبسط وتأتلق حتى تملأ الأكوان بسمتها وإشراقها

وهنا الحدائق تتدفق بأنهار كأنهار الجنة تتنهد وتغرد ، وتتلفت وتزهى ، وتعبق حافاتها بخمائل الخلد وأزاهير النعيم ، ثم تدوب فى الجو الساجى الهائم أنفاساً مشبوبة بالعطر ، لاهية بالغناء طافحة بالشوق

فمن أحب أن يشعر بهناءة الفن ، ورغادة الأدب فليقرأ « عمر بن الخطاب »

ومن فاته أن يرى إلى جنائن عبقر ، وحدائق الشرق المسحورة ، ويتسمع الى حكايات الحب وأقاصيص الحرب ، وينظر الى مواكب المجد وكتائب النصر فليلتمسها فى هذه الملحمة الكبرى ! »

أنور العطار

سَرَب « هراقليوس[(١)] » فى أنحاء الكنيسة بين العمد

* الفصل السادس عشر من الملحمة الدينية الكبرى : « عمر بن الخطاب » التى تطبع الآن فى دمشق ، لكبير أدباء الشام الأستاذ معروف بك الأرناءوط عضو المجمع العلمى العربى ومؤلف « سيد قريش » وصاحب « فتى العرب »

(١) « فى هـذه القطعة الشاعرة وصف دقيق أخاذ « لهراقليوس العظيم » يزور منفرداً فى الليل كنيسة السيد المسيح فى بيت المقدس ، وأحراسه وجنوده ومواكبه على أبواب المعبد ينتظرون معاده ، وهو غارق يستجدى هـذا المطاف المقدس العزاء لنفسه الضارعة المهدودة ، فتلتمع فى عينيه صور ماضيه الآثمة ، فتئن الأشباح وتهمس الصور وتتنفس التماثيل ، ثم يبين له موكب من ضحاياه يضم اليه أربعة أشباح أضناها العذاب وأذابها الهم ، أحـدها رجل مشوه اسمه « تفتالى » وإلى جانبه ثلاث نساء هن « بليترا » ، وابنتها الصغيرة مارية ، وبنيامينا ابنة تفتالى » وقد كن إلى جانب « تفتالى » مختبئات فى حنايا المعبد يترقبن دخول « هراقليوس »

وهنا يعرض الأستاذ الأرناءوط لهذا المشهد الرهيب فيمزج الأحياء بالأموات ، والحقيقة بالخيال ، والنقمة بالعفو

يخيل إلى « هراقليوس » أن الصور المنقوشة فى الحوائط والجدر والتماثيل المنصوبة فى الزوايا والحنى ، تحس وتتنفس وتتكلم ثم تمشى اليه صفوفاً متراصة تأخذ عليه السبل وتثير فيه الخوف والرعب والألم والندم ، فيغيب عنه فى عالم يسوده البكاء والهول ، ثم يغمره العفو والرحمة ! »

والأقواس والحنايا والقناطر والتصاوير والشموع ، فكأنه في سربه طائف ألقت به دنيا الأموات إلى دنيا الناس ، وما كان قاهر الفرس وسيد الكتائب الظافرة في أفريقية وأوربة ليستطيع أن يكافح شجوناً علقت بنفسه وملكت عليه إحساسه وشعوره ، وتلك هي شجون لم يحسر عنها أمام خلصائه وأصفيائه استبقاء لزهوه وكبره ، وحرصاً على ذلك المجد الذي بلغ نواحيه في عمره الطويل ، ولكنه أحب أن يأتي بحزنه وشجوه إلى هذا الليل الغاسق الذي بسط جناحيه على غابة تموز بالصور والدمى والمرمر والبرفير واللآلىء واليواقيت ، وقد يكون من الخير لنفسه أن تطفو روحه على هذه المشاهد والأشياء ، فكان كلما مر برواق من هذه الأروقة المعتمة هتف الجرح بقلبه وحسه ، فترسل في مشيته ، وأقبل إلى العمد المرمرية المائلة فترفق على جذوعها وجعل ينظر إلى أضواء الشموع ، ثم إلى هذه الصور التي قبست شحوبها من نفوس عمرت بالألم والتقى والورع ، فاذا صدف عن العمد المرمرية ونازعته نفسه إلى الطواف بالأماكن المقدسة ، انبسط أمامه فضاء الكنيسة واتسع ، وخيل إليه أن الحوائط والجدر تفر منه وتنأى عنه ، فما يستطيع لحاقاً بها ، ولا تستطيع أن تسايره في منازعه فتسكن وتستريح ؛ وكان في بعض الأحايين لا يجد معدى عن الوقوف أمام هذه الصور الملونة رجاة أن يتعرف إلى أصحابها ، فيفتح عينيه ويمد يده إلى مذبح صغير ازينت أطرافه وجنباته بالذهب ، فيقبض على شمعة من هذه الشموع التي تضيء المذبح ، ويأتي إلى الصور ويقرأ أسماء الرسل على الضوء ، ثم لا تعجبه هذه الأسماء فيرتد عنها في مثل خفة الوميض ، ويطرح الشمعة إلى حضيض البيعة ، فيخبو نورها ، ثم لا يغمه ويحزنه أن يستأنف طوافه في ليلين راعبين : ليل نفسه ، وهذا الليل الذي يغشى المعبد !

وربما كان من أحب أمانيه ألا يقول شيئاً لأصحاب التصاوير ، وقد يكون من أرضى هذه الأماني أن يأتي بدخيلة نفسه الى المسيح وحده ، وذريعته في الحرص على صمته حتى يخلو الى صورة السيد المسيح أنه ناضل ونافح في سبيله ، فأولى للنبي الذي نصره على الوثنية وبارك سلاحه في سوح الوغى أن يفزع الى الرسول العبقري ، وإنما يضيره أن يقص حياته على صور ما كان أصحابها من طرازه وعنصره !

ولقد وقف « هراقليوس » بعد إفلاته من القبر المقدس بجوار صخرة قيل إن ملكا من السماء وقف عليها ليتحدث الى العذراء مريم ؛ فتهافت عليها وتمسح بها ، ثم دخل الى بيعة صغيرة أسماها نصارى القرون العافية « معبد الملائكة » ، ثم لم يلبث أن ازور عنها وجاء الى بيعة محاذية في رحبتها قطعة كبيرة من المرمر الرمادي قيل إن السيد المسيح صمد عليها وتراءى لمريم المجدلية ، وعليه لباس جنان يحمل الورد ، وكانت البيعة الصغيرة تسبح في ظلام شديد ، فثنته الجهمة الراعبة عن شعور الرجل التقي ، فجثم مصلياً على المرمر وحدق الى سماء المحراب كأنه يريد أن يتعرف المكان الذي خرج المسيح منه بعد دفنه ، ولم يطل مكثه في المحراب ، فمافة وغشى المعبد الذي ظهر فيه السيد للعذراء بعد بعثه ، فطاف بودائعه طوفة الحاج المنيب ، وكانت المصابيح المذهبة الملونة تضيء جوانب المعبد ، فرأى هراقليوس على وميضها صورة تمثل المسيح ووالدته ، فرق للصورة وابتسم ، ولكن ذلك العزاء الذي تمناه لم يخالط نفسه ، فجمع ذيول ردائه وخرج من المعبد ليدأب في طوافه ، فاستقبلته العمد المرمرية الرفيعة ، كأنها خيالات الموتى ، فأخافه ماعليها من سعف النخيل وورق الغار ، وأعمى مخاوفه احتراق البخور في كل ناحية من نواحي البيعة الكبرى ، وإطلال الصور على الحوائط والجدر ، وكان يخيل اليه أن حجه قد انتهى ، فينبغي له وقد بلغ غايته من زيارة الأماكن الطاهرة أن ينقلب الى أحراسه الذين أبوا مفارقة أبواب الكنيسة قبل فراغه من حجه . فلما هم أن يخرج لم يستطع أن يتعرف الأبواب ، فقد امتد صحن الكنيسة وفاح حتى ماثل الحرجة الغبياء ، فألقى بنفسه الى تيه راعب ، وبلغ به المطاف محراب القديسة « هيلانة » المائل الى يساره ، فشخص اليه وقرأ اسم هيلانة منقوشاً على المرمر بحروف أغريقية ، وهو لا يجهل أمر هذه المرأة التي لبست التاج في كنيسة الرسل ، وابتعثها شغفها العنيف بقصة حياة المسيح على فراق القصر ، فجاءت الى بيت المقدس لتبحث عن خشبة الصليب ، فلما عثرت عليها بالغت في تكريمها ، ثم رفعت هذه الكنيسة تخليداً لذكريات تلك الحياة الماجدة !

لألأ الفرح على جبين هراقليوس فتشاجى ورقّ ، وجعل يستعرض تاريخ تلك المرأة التقية التى أزجاها الورع الشديد المنيف الى الابغال فى منافحة الوثنية ، فأكبر حياتها . ثم فاضل بين هذه الحياة وحياته ، فراقه تساوقٌ عجيبٌ فى الحياتين ، ولذه أن تبدأ المرأة العاقلة أمرها فى البحث عن الصليب حتى حصلت عليه ، وأن يبدأ هراقليوس أمره فى إرجاع الصليب الى مكانه الأصيل بعد انتصاره على جيوش ملك الملوك كسرى !

وكانت هذه المفاضلة التى ذهب اليها ساعة وقف الى جانب المحراب مثاراً لذكرياتٍ نبيلة فى نفسه ، فاطمأن البطل القارع الى خاتمة حياته ، ووثق بقدرته على اجتناء النصر حتى يغيب فى رمسه ! وما عاد يخيفه هذا البغض الذى يشعر به الناس فى الشام وفلسطين ومصر ، بل عاد هراقليوس يخاف أمر هذه الصحراء التى أخرجت الأبطال والمساعير الى مشارف الشام للثأر بدم الرسول الذى قتله أميرٌ من غسّان ! ومن أين لهذه الصحراء الغارقة فى الرمال ، والتى لا يسمع لها نشيدٌ فى البلاد الوارفة الظل، حظّ هراقليوس اللامع وجدّه الساطع ؟ وهذا الملك الطويل العريض الذى استعبد الشعوب وأذلّ الملوك ؟ بل من أين لهذه الصحراء الغطشاء السادرة فى حر الهاجرة ، هذه الأنهار الجارية ، وهذه البحار الطاغية ، وهذه الشطآن التى لاحد لها ولا انتهاء !

قد تغرى الحماسة فرسان الصحراء بالوثوب على القرى والمسالح ، ولكن دون وصول هؤلاء الفرسان الى المدن الضاحكة على ضفاف الأنهر وشواطىء البحار ، حميّة هؤلاء الملوك الذين مشوا فى ركاب قيصر لقتال كسرى فى مدائنه ! وبسالة الجيش الذى ظفر بأسلاب العدوّ فى جبال الألب وفى سهول مقدونية ، وعلى شواطىء البحر اليونانىّ !

وماذا يستطيع « فروة بن عمرو » الذى ثار على سيده ومولاه أن يفعل ، وفى جيش هراقليوس قوادٌ ما تزال صدورهم تخفق بتلك الأناشيد التى سمعها العراق وسمعتها فارس ، ولا يزال صليلها الراعب يرعد فى سمع هذه الدنيا التى لا يرتفع لها علم بجوار علم قيصر ! . . .

لقد همس هراقليوس باسم فروة ، وهو منحدرٌ الى الهاوية العميقة التى نقرت على جلامدها كنيسة القديسة هيلانة ، همس الساخر العابث ، ولما جاز السلالم إلى ذلك المنحدر الأوهد رفع يده إلى الفضاء كأنه يتوعد الفيلارك فروة بن عمرو الجذامىّ ، ثم تضاحك ، حتى لقد رنّ ضحكه فى جوف الهاوية وأردف صائحاً : « ما أنا بحاجة الى قتالك أيها الفتى الذى ابتعثته أمانى الشباب على الزراية بسيدّ الجيوش وأمير الجحافل ! فمثلك لا يقاتله رجل إلا من طرازه ونوعه ، وقد وقفت فى المثور على الرجل فاليكه ، فانه الحارث الغسانى أمير دمشق وسيأتيك من حيث لم تحذر ، ويقاتلك من مأمنك »

جاز قيصر السلالم فى رفق وهوادة ، فاستقبلته الظلمة الفاحمة ، وارتمت على جبينه الرطوبة ، ومرت إلى نفسه عفونة ما كان يستطيع عليها صبراً ، ومع هذا كله مضى هراقليوس لما شاء ، ودأب فى انحداره حتى انتهى إلى الهاوية ، فاذا عليها سحب من ليل صارد ، وإذا الرطوبة التى استقبلته على وصيد الباب تستقبله عند كل خطوة ، وإذا هو لا يبصر غير بريق الفسيفساء على الحياط والجدر والحنايا ، فانكمش وتقاصر وردّت اليه هواجسه ، وثابت الى قلبه وساوسه ، وامتلأ رأسه بالتهاويل والتصاوير ، فاطرح عبقرية الرجل الأريب ، وأخذته جنة الرجل السروب ، وفكر فى الرجوع على عقبيه فما جرؤ على رجمة وشيكة ، فقد سالت نفسه على الحياط والجدر ، وأنمى مخاوفه بصيص من ضياء يتسرب الى حضيض البيعة من ثقوب فى قبتها السامقة ، وقد تسايل على الجدر والحياط فضوّأها ، فنظر هراقليوس إليها فاذا عليها تصاوير غائمة شاحبة تمثل أشخاصاً ذوى وجوه كامدة ، وقد قعد هؤلاء القرفصاء ، وحسروا عن صدورهم فاذا هى قد أكلتها القروح وأثخنتها الجروح ، فسال صديدها على أطمار بالية عافية ، وبين هؤلاء المناكيد المشائيم فقراء متسولون يغشى وجوههم الناصلة أثر غير يسير من بؤس ويأس ، ومن حولهم فتى رائع الجمال ، ضاحك الأسارير قد سدر شعوره الشقر على منكبيه حتى ماثل المسيح فى ملامحه البارعة ؛ ولكنه ضرير لا يبصر ما حوله !

خيل الى هراقليوس وهو ينظر الى هذه التهاويل أنه فى

مكان يسوده العذاب ، فتلطفت نفسه ورجفت أسنانه ووضع يده على عينيه كأنما هو يحاول ألا يرى إلى هذه الأشياء الجاهمة ، ثم فكر فى الرجوع إلى المعبد ، ليلحق برجاله الذين ينتظرون معاده على الأبواب فما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فلقد أمالته مخاوفه إلى الايغال فى الطواف فمشى بين صفين متقابلين من أشباح وصور ثم لم يعد فى ميسوره أن يدأب فى طوافه ، فوقف تحت قنطرة المعبد وجعل يستمع لفحام مؤلم ينبعث من صدره

ليس بين هذه المحاريب التى غصت بها أنحاء كنيسة القبر المقدس ما يماثل محراب القديسة هيلانة فى ظلمته وروعته ، وفى ذكرياته الحافزة المثيرة ، فلقد يستطيع الانسان أن يمر بالمعابد جميعاً وينسل إلى الأروقة جميعاً ، ويتحسس العمد والتصاوير جميعاً فلا يحس خوفاً ، فاذا ألقت به حظوظه العاثرة الى معبد القديسة هيلانة بدت له نواحيه وأطرافه صامتة ذاهلة ، فاذا تدفق فى سيره ألفاه خالياً عاطلاً إلا من هذه الأشباح والأطياف الجاثمة على سلاله ودرجاته وعند مداخله ، وإلا من هذه التصاوير التى لاتفارق جدره وحياطه ، فاذا طاف بهياكله ومنابره لم تتبدل فى عينيه هذه الصور التى أبصرها على عمده وحناياه وأقواسه ، ثم لا يلبث أن يفر من هذا المكان الراعب الذى يماثل فى تهاويله وتصاويره معابد الوثنية

لم يجد هراقليوس معدى عن الصلاة نخافت بصوته لعل صلاته تنسيه هذا الضجر الأحمق الذى علق بنفسه ، أو لعل هذه الصلاة التى همس بها فى الراموس الراعب ترجع به إلى حزمه ومضائه فينقلب على أحلامه وهواجسه ، ويجفو هذه العزلة الجاهدة ، ويفىء إلى سربه صحيح العقل موفور الذكاء ، ولكن الرجل الذى أوفى لنصرانيته وبر بمسيحه ما كان يجد فى هذه الصلاة التى رددها أمام التصاوير ، ذلك الصفاء الذى كان يشتاقه ، وذلك لأن ماضيه مَثَلَ له فى الراموس النابى ، فزحمته طيوفه وأشباحه ، وخرجت على فمه أسماء معاركه وملاحمه ، وانفلتت من صدره ذكريات مخازيه ومساويه ، نوازن بين انتصاره على الوثنية وبين ايغاله فى تنكيد أبناء الشيع النصرانية ، فرجحت كفة رذائله على كفة فضائله ، فتشاجى ورق وهام على وجهه فى فضاء المعبد حتى بلغ هيكله المرمرى ، فوقف حياله كأنما هو يريد أن يعترف بذنبه ، أو كأنما هو ينزع الى إلقاء جرائمه فى هذا المكان المخوف ، فذكر أمام الهيكل اسم : « مارتينا » زوجه ، وقد نهاه البطريرك « سرجيوس » عن مخالطتها ، فأبى ذلك مسايرةً لميول قلبه ، ثم تزوجها وألبسها لباس القياصرة ومشى بها الى كنيسة أياصوفيا من غير أن يفطن الى عظيم ذنبه عند ربه

وكان كلما طافت به هذه الذِّكَرُ الشجية لا يمنع عينيه البكاء حتى لقد استفاض أنينه فى أنحاء المعبد ، فاستمعت لها التصاوير ووعتها السدفة ، ثم غشيته ذهلة قاتلة ، فجعل يهذى هذياناً بليغاً ، وانكفأ يخلط ماضيَه بحاضره ، وقذف فمه أسماء ضحاياه ، وبين هذه الأسماء التى لا تحصي اسم فتاة وطىءَ قيصر عفافها فى ليلة عاصفة بالبروق والرعود ، وأرادها على فراق وطنها فخرجت منه الى ربوع الشام وفى نفسها المحطمةِ من الذكر الراعبةِ ما ليس فى كتاب

وكان هذا الخوف الذى تولاه ساعة نظر الى صورة الأعمى مبعث حيرته ومصدر وساوسه ، فسأل نفسه عن هذا الجزع الذى غشيها وهو الزعيم الكميّ الذى جاز بفرسانه شواهق أنطاكية وسهولها ليلحق بجيوش « كسرى » عند « تدمُر » فتنة الصحارى ، فلما فرت جيوش كسرى أمام كتائبه ثارت حميته واستأنف زحفه فى أرضٍ محصبةٍ واعرةٍ ، حتى لقى كسرى عند دجلة فنهد الى مقارعته وحمله عار الانكسار ، ولحق به الى المدائن وأقسره على إرجاع الصليب الذى حمله ملك الملوك من بيت القدس

وليس هذا كل ما فكر فيه ، بل لقد ذهب فى تفكيره الى أبعد مدى ، فتمثل دخوله الى هياكل الوثنية فى موكب ضاحك عليه الشىء الكثير من بهاء النصرانية ورواء القيصرية ، ولم ينس تلك الحماسة البالغة التى لقيها فى معابد « جوبيتير » و « منرفا » فوازن بينها وبين هذا الفتور الذى استقبلته به معابد النصرانية ! وعيناه لا تزالان تنظران الى صورة الفتى الأشقر الذى لا يبصر !

(البقية فى العدد القادم) معروف الأرناءوط

٤ـ شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

— ٤ —

ويجب أن نضيف إلى تلك الأدلة على أن حب أبى العتاهية لعتبة جارية المهدى لم يكن حباً صادقاً ، دليلاً آخر هو ذلك الشكل الذى ابتدأ به حبه لها ، وحب صاحبه لخالصة صاحبتها ، فان وقوف كل واحد منهما فى الطريق لتمر عليه أى امرأة كانت ، فيتفق أن تمر عليهما هاتان الجاريتان ، فيقول أحدهما قد عشقت عتبة ، ويقول الآخر قد عشقت خالصة ، لا يدل إلا على أنهما كانا يريدان حباً كيفما اتفق ، حباً يتخذانه وسيلة للظهور والمران على الشعر ، لا حباً صادقاً يملك عليهما حياتهما وشعرهما ، كما ملك ذلك على الشعراء العشاق قبلهما

ولم يكتف أبو العتاهية باتخاذ عتبة وسيلة له إلى الاتصال بالمهدى ، بل اتصل أيضاً بيزيد بن منصور خال المهدى ، وكان من أكرم الناس ، وأحفظهم لحرمة ، وأرعاهم لعهد ، وكان باراً بأبى العتاهية ، كثيراً فضله عليه ، وكان أبو العتاهية منه فى منعة وحصن حصين ، مع كثرة ما يدفعه اليه ، ويمنعه منه من المكاره ، ومن أجله كان أبو العتاهية يتعصب لليمانية أخوال المهدى ، ويمدحهم فيما يمدحه به من شعره ، ومن ذلك قوله :

سُقيتَ الغيثَ يا قصر السلام ... فنعم محلَّةُ الملك الهمام
لقد نشر الالٓه عليك نوراً ... وخفَّك بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهدىِّ حتى ... تدور علىَّ دائرة الحِمَام
له بيتان ، بيتٌ تُبَّعِىٌّ ... وبيت حلَّ بالبلد الحرام

وقد اتصلت مدائحه بالمهدى فقربه منه ، وعظم مقامه فى دولته ، ونال من جوائزه مالم ينله غيره ، وكان الأمر يصل بينهما أحياناً إلى التبسط فى أوقات اللهو إلى حد تسقط فيه الكلفة ، وينسى الفارق الكبير بين المهدى وبينه ، ومن ذلك أنه خرج معه يوماً إلى الصيد فى بعض من حاشيته ، فوقعوا منه على شىء كثير ، وتفرقوا فى طلبه ، وأخذ المهدى فى طريق غير طريقهم وكان معه أبو العتاهية ، فعرض لهم واد فسيح ، وتغيمت السماء وبدأت تمطر ، فتحيرا فى أمرهما ، وأشرفا على الوادى ، فاذا فيه ملاح يعبر الناس ، فلجآ اليه وسألاه عن الطريق ، فجعل يضعف رأيهما ، ويعجزهما فى بذلهما أنفسهما فى ذلك الغيم للصيد ؛ ثم أدخلهما كوخاً له ، وكاد المهدى يموت برداً ، فقال له الملاح : أغطيك بجبتى هذه الصوف ؟ قال : نعم ، فغطاه بها فتماسك قليلاً ونام ، فافتقده غلمانه ، وتبعوا أثره حتى أتوا اليه ، فلما رأى الملاح كثرتهم علم أنه الخليفة فهرب ، وتبادر الغلمان فنحوا الجبة عنه ، وألقوا عليه الخز والوشى ، فلما انتبه قال لأبى العتاهية : ويحك ما فعل الملاح فقد والله وجب حقه علينا ، فقال : هرب والله خوفاً من قبح ما خاطبنا به ، فقال إنا لله ، والله لقد أردت أن أغنيه ، وبأى شىء خاطبنا ؟ نحن والله مستحقون لأقبح مما خاطبنا به ، بحياتى عليك إلا ما هجوتنى ، فقال : يا أمير المؤمنين كيف تطيب نفسى بأن أهجوك ، فقال : والله لتفعلن فانى ضعيف الرأى مغرم بالصيد . فقال :

يا لابس الوشى على ثوبه ... ما أقبح الأشيب فى الراح

فقال له زدنى بحياتى فقال :

لو شئت أيضاً جُلتَ فى خامة ... وفى وشاحين وأوضاح

فقال له : ويلك هذا معنى سوء يرويه عنك الناس وأنا أستأهل ، زدنى شيئاً آخر . فقال : أخاف أن تغضب ، فقال لا والله ، فقال :

كم من عظيم القدر فى نفسه ... قد نام فى جُبةِ ملاَّح

وهذه حادثة أخرى له مع المهدى تدلنا على أن اتصاله به لم يكن اتصال الشاعر المستجدى الخانع ، بل اتصال الشاعر الذى يعرف لنفسه قدرها ، فاذا رأى شيئاً أمامه من ممدوحه لا يرضى عنه ، نسى فيه ماله وجوائزه ، ولم يذهب فيه معه على ما يرضى هواه ، بل يذهب فيه على ما يرضى نفسه هو ، وإن كان يتلطف فى ذلك بقدر ما تسمح به ظروف عصره فى مخاطبة الملوك ، وتهدئة ثائرتهم عند غضبهم

دخل على المهدى وزيره أبو عبيد الله ، وكان قد وجد عليه فى أمر بلغه عنه ، وأبو العتاهية حاضر مجلسه ، فجعل المهدى يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه ، ثم أمر به فجر برجله وحبس ، ثم أطرق المهدى طويلا فلما سكن أنشده أبو العتاهية :

أرى الدنيا لمن هي في يديه   عذاباً كلما كثرت عليه
تهين المكرمين لها بصُغر   وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه   وخذ ما أنت محتاج إليه

فتبسم المهدى وقال لأبي العتاهية : أحسنت ، فقام أبو العتاهية ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما رأيت أحداً أشد إكراماً للدنيا ، ولا أصون لها ، ولا أشح عليها ، من هذا الذى جر برجله الساعة ؛ ولقد دخلت إلى أمير المؤمنين ، ودخل هو ، وهو أعز الناس ، فما برحت حتى رأيته أذل الناس ، ولو رضى من الدنيا بما يكفيه لاستوت أحواله ولم تتفاوت . فتبسم المهدى ودعا بأبي عبيد الله فرضى عنه ، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبي العتاهية

فاذا قيل لنا كيف صار الفتى بائع الجرار إلى هذه المنزلة من علو النفس ، بحيث يسمو ذلك السمو على وزير المهدى ، وإذا بدا للناظر غريباً أن ينقلب هذا الشاعر الماجن ذلك الانقلاب الذى يتنافى مع ماضيه كل المنافاة ، فان هـذا لا يجعلنا نتعجل درس هذا الشاعر العظيم ، ولا بد أن ننتظر ذلك الارهاص إلى غايته ، ونمضى فى درسه مرحلة مرحلة

ومن مدائحه فى المهدى تلك القصيدة التى مدحه بها أمام بشار وأشجع السُّلَمىّ وغيرهما من الشعراء ، وقد أذن لهم المهدى فجلسوا وسكت أهل المجلس ، فسمع بشار حساً ، فقال لأشجع : من هذا ؟ فقال أبو العتاهية ، فقال : لاجزى الله خيراً من جمعنا معه ، ثم أمره المهدى فأنشد :

ألا ما لسيدتى مالها   أدَلاًّ فأحمل إدلالها
وإلا ففيمَ تجنَّتْ وما   جنيْتُ سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للأما   م قد أسكن الحبُّ سربالها
مشت بين حور قصار الخطى   تُجاذب فى المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها   وأتعب باللوم عذَّالها

فقال بشار لأشجع : ويحك يا أخا سليم ! رأيت أحرّ من هذا ؟ ينشد مثل هذا الشعر فى هذا الموضع ! حتى بلغ قوله :

أتته الخلافة منقادة   إليه تجرِّر أذيالها
ولم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره   لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بناتُ القلو   ب لما قبل الله أعمالها

فقال بشار : أنظر ويحك يا أشجع ، هل طار الخليفة عن فراشه طرباً لما يأتى به هذا الكوفى ؟

والناظر فى هذه القصيدة يرى أبا العتاهية إلى هذا العهد يبتدىء مدائحه بالنسيب على عادتهم فى ذلك ، ولكنه لا ينسب بليلى ولا هند كما كان ينسب الشعراء قبله ، وإنما ينسب بالجوارى البغداديات الحسان ، ليجارى فى ذلك عصره الذى يعيش فيه ، ولا يجمد على ما كان يجمد عليه غيره ، ولم يكن مع هـذا يعنى بتطويل النسيب أمام المديح حتى يستفرغ فيه وسعه ، بل يلم به إلماماً ، ثم يدخل فى مقصده . قال صاحب الأغانى حدثنا الصولى ، قال حدثنا الغلابى ، قال حدثنا عبد الله بن الضحاك أن عمرو بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدى كان ممدحاً ، فمدحه أبو العتاهية ، فأمر له بسبعين ألف درهم ، فأنكر ذلك بعض الشعراء وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفى ! وأى شىء مقدار شعره ؟ فبلغه ذلك ، فأحضر الرجل وقال له : والله إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ، ويتعاطاه فلا يحسنه ، حتى يشبب بخمسين بيتاً ، ثم يمدحنا ببعضها ، وهذا كأن المعانى تجمع له ، مدحنى فقصر التشبيب وقال :

إنى أمنت من الزمان وريبه   لما علقت من الأمير حبالا
لو يستطيع الناس من إجلاله   لحذوا له حرّ الوجوه نعالا

عبد المتعال الصعيدى

٢٤ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

فلو لاحظ شخص أن (ا) أطول من (ب) بمقدار رأس ، وأن ب أصغر من ا بمقدار رأس ، فسترفض أن تسلم له بهذا ، وستزعم بقوة أنك لا تعني إلا أن الأكبر أكبر بالكبر ، وبسببه ، وأن الأصغر ليس أصغر إلا بالصغر ، وبسببه ، وهكذا تجنب نفسك خطر القول بأن الأكبر أكبر ، وأن الأصغر أصغر ، بمقياس الرأس ، الذى هو هو فى كلتا الحالين ، وستجنب نفسك كذلك ما فى افتراض أن الرجل الأكبر أكبر بسبب الرأس الذى هو صغير ، من سخف فظيع . ألم تكن لتخشى ذلك ؟

فقال سيبيس ضاحكا : كنت لأخشاه حقاً

وكنت تخشى ، بنفس الطريقة ، أن تقول إن عشرة تزيد على ثمانية باثنين ، وبسببها ، ولكنك كنت تقول إنها تزيد عليها بالعدد ، وبسببه ، أو أن ذراعين يزيدان على ذراع واحد بنصف بل هما يزيدان عليه بالكبر ـ ذلك ما كنت تقوله لأن الخطر بذاته موجود فى كلتا الحالين

قال : جد صحيح

ـ ثم ألم تكن لتحذر من التأكيد بأن إضافة واحد إلى واحد ، أو قسمة واحد ، هى سبب اثنين ، وكنت لتقسم أمام الملأ بأنك لا تدرى طريقة يجىء بها أى شىء إلى الوجود ، إلا مشاطرته لجوهره الأصلى ، فينتج أن سبب الاثنين الأوحد هو ـ فى حدود ما تعلمه أنت ـ مشاطرة الاثنينية ، فهذه المشاطرة هى طريقة عمل اثنين كما أن مشاطرة الواحد هى طريقة عمل الواحد ، وكنت ستقول إنى مُطَّرح ألغاز القسمة والاضافة جانباً ـ فقد تجيب عنها رؤوس أبلغ من رأسى حكمة ، ومادمتُ كما أنا عديم الخبرة ، أفزع من ظلى كما يذهب المثل ، فلستُ أقوى على أن أتناول بالهدم مبدأ ذا أساس مكين . فان هاجمك فى ذلك مهاجم ، لم تحفل به ، أو أجبته حتى ترى إن كانت النتائج الناجمة متفقاً بعضها مع بعض أوْلا ، فان طلب اليك بعد ذلك أن تتناول هذا المبدأ بالشرح ، مضيت تزعم مبدأ أسمى ، فأسمى المبادىء السامية ، حتى تجد لنفسك مكمناً ، ولكنك لم تكن لتخلط فى تدليلك بين المبدأ والنتائج ، كما فعل الأرستيون The Eristics على الأقل إذا أردت أن تستكشف الوجود الحقيقى . لا لأن هذا الخلط كان سيتبين لهؤلاء الذين لا يعنيهم الأمر اطلاقاً ولا يفكرون فيه ، فلديهم من الذكاء ما يكفى أن يجعلهم يغتبطون بأنفسهم غبطة عظيمة ، مهما يكن ما تحويه أفكارهم من عناء كبير ، ولكنى أعتقد أنك فاعل كما أقول إن كنت فيلسوفاً

فقال سمياس وسيبيس فى صوت واحد : إن ما تقوله لحق بالغ

اشكراتس ـ نعم يافيدون ، وليس يدهشني منهما هذا التسليم ، فكل انسان له من الفكر أدنى حدوده ليقر بما فى تدليل سقراط من وضوح عجيب

فيدون ـ يقيناً يا اشكراتس ، وقد كان ذلك عندئذ إحساس الرفاق جيماً

اشكراتس ـ بلى ، وهو إحساسنا أيضاً ، نحن الذين نصغى الآن لروايتك ولم نكن من الرفاق ، ولكن ما الذى أعقب هذا ؟

فيدون ـ بعد أن سلموا بهذا كله ، ووافقوا على وجود المثل ، وعلى مساهمة سائر الأشياء فيها ، تلك الأشياء التى اشتقت أسماؤها من تلك المثل ، قال سقراط ما يأتى ، إن كنت مصيباً فيما أتذكر :

تلك هى طريقتك فى الحديث ، ومع ذلك فحين تقول إن سمياس أكبر من سقراط وأصغر من فيدون ، ألست بذلك تضيف إلى سمياس الكبر والصِّغر معاً ؟

ـ نعم إنى أفعل ذلك

ـ ولكنك على رغم هذا تسلم بأن سمياس لا يزيد فى الحقيقة عن سقراط بسبب أنه سمياس ، كما قد يدل عليه ظاهر العبارة ، ولكنه يزيد عليه بسبب ما له من حجم . فليس يزيد سمياس على سقراط لأنه سمياس أكثر مما يزيد عليه لأن سقراط هو سقراط ، إنما سبب الزيادة أن فيه صغراً حينما يقرن إلى كبر سمياس ؟

ـ حقاً

ـ وإذا كان فيدون يربى عليه حجما ، فليس ذلك لأن فيدون هو فيدون ، بل سببه أن فى فيدون كبراً بالنسبة إلى سمياس الذى هو أصغر بالمقارنة ؟

ـ هذا حق

ـ وإن فسمياس يقال عنه إنه كبير كما يقال عنه إنه صغير لأنه فى موقف وسط بينهما ، فهو يزيد بكبره على صغر أحدهما ، وهو يسمح لـكبر الآخر أن يزيد على صغره . ثم أضاف ضاحكاً : ما أشبهنى فيما أقول بكتاب ، ولـكننى أعتقد أن ما أقوله حق

فوافق سمياس على هذا

ـ والسبب فى هـذا القول منى هو رغبتى فى أن تروا معى أنه ليس الـكبر المطلق وحده هو الذى يستحيل عليه أن يكون كبيراً وصغيراً فى آن معاً ، بل إن ما فينا من كبر ، وكذلك ما فى المحَسات ، لن يقبل كذلك الصغير بتاتاً ، ولن يرضى أن يربى عليه ، وسيحدث بدلا من هذا أحد شيئين — إما أن الأكبر سيزول أو يتراجع أمام ضـده ، وهو الأصغر ، أو أنه سيتلاشى بازدياد الأصغر ، ولـكنه لو قبل أو سلم بالصغر فلن يغير ذلك منه ، كما أنى لا أزال كما كنت تماماً الشخص الصغير بذاته مع كونى قد تلقيت الصغير وقبلته حينما قرنت إلى سمياس . فكما أنه يستحيل قطعاً على مثال الـكبير أن يتنازل ليكون أو ليصير صغيراً ، كما يستحيل على أى ضـد آخر ظل كما هو ، أن يكون أو يصير ضد نفسه أبداً ، فهو إما أن يزول أو يمحى أثناء التغير

أجاب سيبيس : هذا عين ما ارتأيه

فلما أن سمع ذلك أحد الرفاق ، ولست أذكر على التحقيق من هو ، قال : بحق السماء ، أليس هذا هو النقيض تماماً لما سبق التسليم به ـ ذلك أن من الأكبر جاء الأصغر ، ومن الأصغر جاء الأكبر ، وإن الأضداد إنما تولدت من أضداد ، فأحسبكم الآن منكرين هذا إنكاراً قاطعاً

فمال سقراط نحو المتكلم برأسـه منصتاً ، ثم قال : تعجبنى جرأتك فى تذكيرنا بهذا ، ولـكنك لم تلاحظ أن هنالك اختلافاً بين الحالتين ، فقد كنا نتحدث فيما سلف عن الأضداد فى المحسوسات ، أما الآن فحديثنا عن الضد فى الجوهر الذى يستحيل عليه ـ كما هو مقطوع به ـ أن يكون على خلاف مع نفسه سواء أكان هذا الضـد فينا أو فى الطبيعة . إذن فقـد كنا يا صديقى نتحدث عن الأشياء التى تكون الأضداد فطرية فيها ، والتى سميت تبعاً لها ، أما الآن فنحن إنما نتكلم عن الأضداد التى تكون فطرية فيها (فى الأشياء) والتى تخلع اسمها عليها ، فلن تقبل قط هذه الأضداد الجوهرية ، فيما نعتقد ، التوليد أو الخروج بعضها من بعض . وهنا التفت إلى سيبيس وقال : هل أدخل اعتراض صاحبنا شيئاً من الحيرة فى نفسك ياسيبيس ؟

فأجاب سيبيس : لم أشعر بذلك ، ولـكنى لا أنكر أنى أوشك أن أحس الارتباك

فقال سقراط : إذن فنحن بعـد هذا كله متفقون على أن الضد لن يكون مضاداً لنفسه بأية حال ؟

فأجاب : إننا فى هذا على اتفاق تام

ـ ولـكن اسمح لى أن أطلب إليك مرة ثانية أن تنظر إلى المسألة من وجهة أخرى ، لترى إن كنت متفقاً معى : أهنالك شىء تسميه بالحرارة وشىء آخر تطلق عليه اسم البرودة ؟

ـ يقيناً

ـ ولـكن أهما النار والثلج ذاتهما ؟

ـ كلا ، بغير شك

ـ ليست الحرارة هى النار ، ولا البرودة هى الثلج ؟

ـ لا

ـ ولـكنك لن تتردد فى التسليم بأنه إذ يكون الثلج تحت تأثير الحرارة ، كما سبق القول ، فلن يلبثا ثلجاً وحرارة ، بل كلما ازدادت الحرارة ، تراجع الثلج أو أدركه الفناء ؟

أجاب : جـد صحيح

(يتبع) زكى نجيب محمود

أرضُ النُّبوَّة

مهداة الى الصديق النابغة على الطنطاوى
بمناسبة عودته من الديار المقدسة ؟

للسيد أمجد الطرابلسى

حَدِّثْ رباعَكَ عن أفياءِ عدنان ... ياشِبْلَ غَسّانَ هِجْ أشبالَ غسانِ
هاتِ الأحاديث عنها فهْىَ شيقةٌ ... تَشفَى بها النفسُ من سُقْمٍ وأحزانِ
أرضُ النبوةِ ماذا فى أباطحِها ... ماذا أجَدَّ بِأهليها الجديدان
ومبعثُ النورِ هل تدوى كَأَمْسِ بهِ
آياتُ (أحمدَ) أو أشعارُ (حسّان)
ومَهبِطُ الوحىِ ، والذكرى مُواسيةٌ
ماذا تُحَدِّثُ عن وَحىٍ وفُرْقان !

* * *

حَدِّثْ عنِ المُلْكِ فى أرضِ النبىِّ وعنْ
عَرْشٍ هناكَ وريفِ الظلِّ فَيْنان
تَهفو الملائِكُ فَرْحَى حول سُدَّتهِ ... مثلَ الحمائمِ تهفو فوق أفنان
حَفتْ به مُهَجُ الإسلام تَكلؤهُ ... ورفرَفَتْ فوقَهُ آمالُ عدنان

* * *

حدث عن القبْرِ ! هل أشجَتهُ مانجِةٌ
أنباءُ (جِلِّقَ) أو أرزاءُ (تِطوان)
لهفى عليهِ يُقِضُّ اليومَ مضجَعَهُ
ما يُرهقُ العُرْبَ من بَغْىٍ وعدوان

* * *

مَهْدَ النبى ! يكادُ الشوقُ يحملُنى ... إليك مستيقِظاً أو غير يَقظان
ماذا أُرددُ عن وجدٍ يساوِرُنى ... قلبى لهيفٌ وطَرفى جِدُّ هتّان
أرضٌ عليها جرى الاسلامُ مندفِقاً
ليغسلَ الأرضَ من رِجْسٍ وأدران
أهفو اليها لعلَّ العيشَ يَهنأ لى ... ما بين أهلى وأرحامى و إخوانى
مَلَّ المُقامُ بأرضِ الشام فى زمنٍ ... طغى به الجَوْرُ فيها شرَّ طُغيان
عفا بها كلُّ مَجْدٍ بعد عزتها ... واندكَّ للعُرْبِ فيها كلُّ سلطان
لا الزهرُ فى (نَيْرَبَيْها) باسِمٌ أرِجٌ
ولا البَلابلُ تَشدُو فَوْقَ (كيوان)[1]
يامن رأى (بَرَدَى) والحزنُ يُثقِله ... يجرى مع الدهرِ شأنَ المُتعَبِ الوانى
أسْوانُ تَغشاهُ سُحْبُ الهمِّ داجيةً ... فيقطعُ الليل فى بَثٍّ وأشجان
تمشى المُسوخُ على جنبيهِ معجَبةً ! ... يا لَلبَهاليلِ من فِهْرٍ وعدنانِ
يا شامُ لولا ضحايا جِدُّ غاليةٍ ... زانَتْ بطاحَكِ من شِيبٍ وشُبّان
لولا ثرًى طيِّبٌ كالمسكِ تُرْبتُهُ ... جرتْ عليهِ دماهُمْ مثلَ غُدْران
لَسِرتُ عنكِ الى أرضِ النبى هوًى ... أليس كلُّ بلادِ العُرْبِ أوطانى ؟
لكن أأنسى بلادى وَهْىَ داميةٌ ... تَئِنُّ من عَسْفِ أعلاجٍ وَذُؤْبان
حسبى فَخاراً وحسبى عِزّةً وَطَنٌ ... فى كلِّ شِبْرٍ بهِ أشلاءُ قُربان

* * *

يا فتيةَ العُرْب . والإسلامِ قاطِبَةً ... كونوا على النصرِ طُرّاً خيرَ أعوان
دعوا التخاذُلَ إنّا كلّنا عرَبٌ ... هل نابنا منه إلا كلُّ خذلان ؟
ماذا تُرَجُّونَ من دُنياكُمُ فِرَقاً ... مصَفَّدِينَ بها أشْباهَ عبدان
تِلْكُمْ جزيرتُكُم ياعُرْبُ باسِمةٌ ... ترنو اليكمْ وتحنو أىَّ تحنان
سيروا اليها نُعيدُ البعثَ ثانيةً ... ونملأ الأرضَ من عدلٍ وعُمْران
أليس مِنّا الأُولى قادوا جَحافِلَهُمْ
وأخضعوا الأرضَ من فُرْسٍ ورومان
مشَوْا لنصرِهِمُ والأرضُ تحتهمُ ... فرحَى تمايَلُ تِيهاً مثل نشوان
ساسوا الأنامَ بعدلٍ غيرِ ذى وَهَنٍ ... وأنطقوا الدهرَ من بِرٍّ و إحسان
شادوا على جبهةِ الدنيا عروشهمُ ... ولو أرادوا بنَوْها فوقَ كيوان
تباركَ المُلْكُ فى (الفَيْحاءِ) منبسطاً ... لا الملكُ دامَ ولا آسادُ مروان
تباركَ العرشُ فى (بغدان) مزدهِراً ... ياأرضُ أين تولَّى عرشُ (بغدان)
ياليت شعرى أطَيْفٌ ذاكَ مرَّ على ... وجهِ البسيطةِ أم أحلامُ وَسْنان ؟!

* * *

أرضَ النُّبُوَّةِ ، والأيامُ جاهِمةٌ ، ... ماذا أُرَدِّدُ من بَثٍّ وأشجانِ
دارَ الزمانُ ، وللازمانِ دورتُها ،
والدهرُ ـ مُذْ كان هذا الدهرُ ـ يومان
فلا (الوليدُ) وعرشُ الشام مبتسم ... يشيدُ للمجدِ فيها خيرَ بُنيان

---

(١) النيربان ، وكيوان : هى بعض متنزهات دمشق الشهيرة

الحيــاة

للأستاذ محمود غنيم

حرةٌ لا تزور إلا لِماما ... تيّمَ الشيخَ حبُّها والغلاما
تيم النمــلَ حبُّها فتولّى ... يطلب الماءَ مثلَنا والحطاما
كشرت عن أنيابهـا لِلبرايا ... فرأوْا ذلك القطوبَ ابتساما
كم سقتهم من الجفاء زعافاً ... وسقَوْها من الوفاء مداما
قد يراها السـعيد حلماً لذيذاً ... ويراها الشقيّ موتاً زؤاما

***

أنا لولا الحياة ما بتّ أخشى ... شبحَ الموت أو أهاب السقاما
قال بالجنّ معشرٌ وأراها ... وحدها جنًّا يلبس الأجساما
أوليست تحزّ لحم البرايا ... مثلَ حزّ المُدى وتبرى العظاما
قسما لو أنّ الأجنــة تدرى ... كنهها لم تفارق الأرحاما
أيهذا الجادُ حسـبُك ألا ... تصحبَ الشيبَ أو تذوقَ الحِماما

***

صاح أن الحياة لغز اذا ما ... زدتُه بحثاً زادنى إبهـاما
ليت شعرى ماذا تكون، أحسًّا ... أم خيالاً ويقظة أم مناما ؟
أم طريقاً الى الفناء قصيرا ... قد ركبنا لطيّــه الأياما ؟
كل حى له كتابٌ، ولكن ... أعجم اللهُ خطَّه إعجاما
لو عرفنا متى تـكون المنايا ... لانتظرناها مذ بلغنا الفطاما

***

أيها العلم كم هتكت حجابا ... فأمط عن سر الحيـاة اللثاما
تلك آثارها إذا عرضت لى ... ألهمتنى وجودها إلهاما
فاذا رمتُ وصـفها بلسانى ... ألجمتنى فلا أحير كلاما
هى كالكهرباء لستُ أراها ... وأرى ضوءها يشق الظلاما
هى من روح الله وهو خفىٌّ ... ذو صفاتٍ دلت عليه الأناما

***

يا ابنة الشمس وجهُ أمك بادٍ ... فعلام احتجبتِ أنت علاما ؟
عرف الناس فضل أمك قدْما ... فتلقَّوْها سجَّداً وقياما
حدثينا كيف ابتدأتِ على الأر ... ض وحرّكتِ هذه الأجراما ؟
وأرينا متى ظهرت عليها ... وإلام البقاء فيها إلاما ؟
أخذ الناس فى التكاثف حتى ... باتت الأرض وهى تشكو الزحاما

***

ليت شعرى أضل « دَرْوِن » بحثاً ... حين آخى(1) الوحوش والأنعاما
قال قوم هلا شهدنا ذبابا ... فى الحياة ارتقى فصار حَماما
وغلا آخرون فيـه فقالوا ... كان فى مذهب النشوء إماما
قد(2) عرفنا أبا الأنام جميعا ... فهل الطير والوحوش يتامى ؟
وهل الجن تنتمى كالبرايا ... لأبٍ يُدعى يافثاً أو حاما

***

سائل البحر كيف أنبت لحما ... من أواذيِّه وسوّى عظاما
وتأملْ بين الحقول نباتا ... سوت الأرض سوقَه فاستقاما
علّ من بارد النمير شرابا ... وتغذى من الهواء طعاما
ولقد يولد النباتُ ويفنى ... ويعانى مثل الأنام سقاما
حكمة تملأ النفوس يقينا ... بإله يدير هـذا النظاما

***

سائل الشمس عن بنيها لماذا ... كانت الأرض وحدها مِتآما(3)
ليت شعرى ألـكواكب نسل ... يشبه الناس أم تُراها عقاما
ليتنى أركب الرياح الى الأف ... لاك أو أمتطى اليها الغماما
أيُّهذا الأثيرُ إن كان فى المر (م) ... يخ حىٌّ فاحمل اليه السلاما
حىٌّ أهليه إن مررت عليهم ... إن للجار حرمة وذماما

محمود غنيم

(1) هو يقول : إنهما وإياه من أصل واحد ، فكأنه آخاها

(2) هذا البيت وما بعده ليسا من مذهب الشاعر ، وانما هما من مقول القول فى البيت السابق

(3) المتآم : المرأة التي تلد أزواجاً

ولا (الرشيدُ) على بغدانَ فى يدهِ ... دهرٌ يُصرِّفُهُ كالموثَقِ العانى
يادهرُ ويحكَ ! رُدَّ العرشَ ثانيةً ... فكم عروشٍ مَلَكناها وتيجانِ
لنا نفوسٌ أبيّاتٌ تُهيِّجُها ... ذكرى جدودٍ كنُورِ الشمس غُرّانِ
يشُوقُها المجدُ وضّاءً بقُرطبــةٍ ... والعزّ منبسطاً فى ظلّ (بغدان)
أراجعٌ أنت ذيّاكَ الزمانِ لنا ... أم لا رُجوعَ لأيامٍ وأزمانِ

. . . .

سنرجع المجدَ أو نقضى بساحتِهِ ... ذُلّ الحياةِ وطعمُ الموتِ سِيّان

دمشق — **أمجد الطرابلسى**

القصص

من أساطير الاغريق

ڤينوس (١)
ربة الجمال والحب

مولدها . نشأتها . إحدى مغامراتها الغرامية

للأستاذ دريني خشبة

تعالوا يا أعزائي المحبين نسمعْ أغنيةَ الجمال والحب ، من ربة الجمال والحب ، بارزةً من الثَّبج ، فوق الموجة الكبيرة وسط اليم

لقد كانت السماء زرقاء صافية ، ولكنها لطفت ورقَّت ، وتضاعف صفاؤها ، عندما ذاع في ملكوتها النبأ العظيم ، وبشرت بمولد ڤينوس !

ابتسمي أيتها الشفاه الحزينة ، وانبسطي أيتها الأسارير المقطبة ، وانثلجي يا صدور الكلومين !

وأنت أيها القلب الملتاع قِفْ خفقانك ، وأنت أيها الطرف الساهم كفكف عبرتك ، ويا نفوس العاشقين اطربي ، فقد ولدت ڤينوس !

برزت عرائس البحار يُصلين في بُكرة الصباح لأبوللو ، فما راعهن إلا الطفلة المعبودة تخرج من الزبد الأبيض كما تخرج من الصدفة لؤلؤة غالية ؛ وتتهادى على رؤوس الموج كطيف نوراني فيسجد الماء تحت قدميها الصغيرتين ، متمتماً بصلاة الحب لربة الحب ، مرتلاً أنشودة الجمال لربة الجمال !

وافترَّ فم الدنيا عن ابتسامة سعيدة حلوة ، يُحيي الفم السعيد الحلو ، الذي سيملأ قلوب العالمين رِضى وسعادة !

(١) اسمها اليوناني أفروديت ، وسميت في أساطير كثيرة ديون ، سيثريا . وهي إلهة الجمال والحب ، ربة الضحك والزواج

وأشرقت ذكاء تحمل أبوللو فلمح السَّوْسَنَةَ الوردية (١) تخطر على لازورد الماء ، فترك عربته المطهمة بالذهب تعرج وحدها في القبة الزرقاء ، وانثنى هو يزف البشرى إلى آلهة الأولمپ !

وهرعت عرائس الماء إلى ڤينوس الطفلة فرقصن وزغردن وتغنين وحملنها إلى قصورهن المرجانية في الأعماق ، حيث أرضعنها لبان الهوى ، ولقَّنَّها كلمات المحبة ، ونَشَّأْنها على أساليب الصبابة والغرام ، حتى أينعت وترعرعت ، فأزمعن المسير بها إلى الأولمپ حيث يتلقاها الآلهة ، فتأخذ مكانها بينهم . . .



مولد ڤينوس (احدى روائع بوتشللي من نوابغ عصر الاحياء)
إلهة الحب واقفة على صدفة بحرية يزجيها في الماء زفيروس حتى وقف بها على شواطئ قبرس

وكم كان جميلاً رائعاً أن يصطف التريتون والأوسيانيد والنيريد (٢) من حولها ؛ وكم كان جميلاً رائعاً رقص التريتون على صفحة الماء الجياش بالزبد ، وتغريد الأوسيانيد كأنهن بلابل الروض الأخضر ترسل في هدير المحيط شَدوَها فيحورَ غناء كله !

(١) الاستعارة من هسيود الشاعر اليوناني وقد اقتبسها شلي وكيتس وتنيسون وسپنسر ودروين وكولردج حتى لكأنها أصبحت رمزاً لڤينوس

(٢) التريتون هم أبناء نپتيون إله البحار ونصفهم الأعلى نصف رجل والأسفل نصف سمكة — والأوسيانيد هم عرائس المحيطات وأجل عرائس الماء وهن بنات أوسيانوس رب المحيطات ومنه اشتقت الكلمة Oceans — والنيريد طائفة أخرى من عرائس البحار وهن بنات الاله نيروس

وكم كان جميلاً رائعاً من النيريد أن يتضاحكن مترنمات فى الحلقة الأولى حول ڤينوس فتستجيب السماء لهن ، ويميد البحر من طرب بهن !

كم كان جميلاً رائعاً أن يخب موكب الحب فوق الماء حتى يكون على فراسخ من قبرس [١] معدودات ، فينثني الجميع إلا ڤينوس التى يهدهدها زفيروس الطيب ، رب النسيم الجنوبى ، حتى يصل بها إلى الشاطئ ، حيث يكون فى انتظارها بنات تيمز [٢] ربة العدالة ، وبنات يوربنوم ربات الفضيلة والخلق الحسن ، فيتقدمن إلى ربة الحب ، فيصلين لها ، ويجففن شعرها الذهبى المتهدل فوق كتفيها العاجيتين ؛ ثم تدلف بينهن ، لفاء هيفاء غراء غيداء مهتزة الجيد وضّاحة الجبين ، كلما خطت خطوة قبّلت الأرض قدميها المعروقتين ، وكلما مرت ببلقع اهتز وربا ، واعشوشب وأزهر ، حتى يلقاها آلهة الحب الأربعة ، رب الشهوة هيميروس ، ورب الغزل سواديلا ، ورب الألفة پوثوس ، وهيلين رب الزواج ؛ فينخرطون فى الجماعة ، ويهطعون إلى الأولمپ !

وتكون الأنباء قد تواترت عن قدوم الربة الجديدة ، فيصنع لها عرش عتيد ما تكاد آخر ياقوتة تركب فيه حتى تصل ڤينوس فجأة فتستوى عليه ، وتتصارع أبصار الآلهة العطشى حول جسمها الخصيب ، المترع بالفاتن ، وتتلمظ الشفاه الجائعة تود لو تفترس هذا الفم الأحوى الجميل ، وتسرى كهرباء الاشتهاء فى الأذرع القوية ، والصدور الهرقلية ، تحلم بضم الجيد الناهد ، ومخاصرة الوسط المياس ، و . . . تثور الرغائب ، وتفور الشهوات . . . وڤينوس ممتلئة كبرياء . . . كأنها العنقاء . . . ترسل اللمحة من طرفها الساجى فتصرع هؤلاء وهؤلاء !!

وتقدم الآلهة كل بدوره يطلب يد ڤينوس ، وكان كل إله يفاخر أخاه بما لديه من نعم وآلاء . وكان مضحكاً أن يسفه الآلهة بعضهم بعضاً بين يدى ربة الجمال والحب حتى ازدرتهم جميعاً ، وخبرت من حماقاتهم مالا يتفق وهذا الورد المتفتح فى خديها ، والسحر النائم فى مقلتيها ، والفتنة الثاوية فى كل جارحة من جارحاتها ؛ فرفضتهم أجمعين ، وإن تكن برفضها قد أغضبت أباها كبير الآلهة وسيد أرباب الأولمپ

ولم يُغضِ الآلهة عن تحقير ڤينوس لهم ، بل انقلب إعجابهم ثورة ، وارتد افتتانهم نقمة ، وود كل منهم لو خُلّى بينه وبينها فيبطش بها بطشاً شديداً

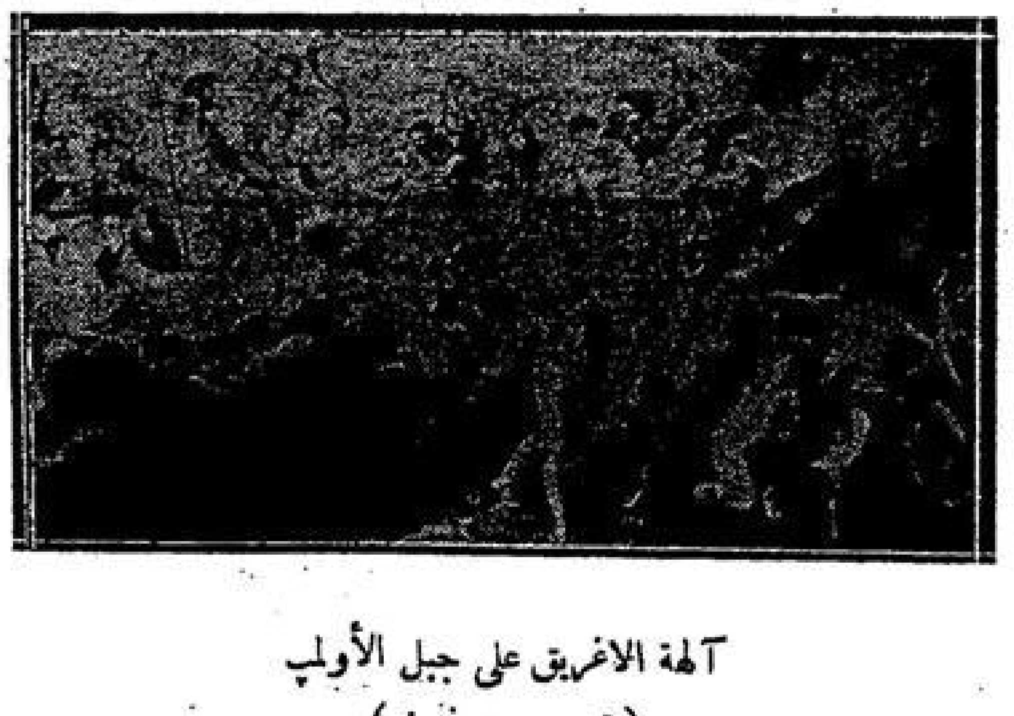
وأجمعوا أمرهم ضحىً ، وذهبوا إلى زيوس يطالبونه بالانتثار لكرامتهم كأرباب مرهوبى الجانب مخوفى السلطان ، من ابنته ربة الحب الطائشة ! !

وخاف زيوس ثورة الآلهة ، وأفزعه تجمهرهم فى ردهة الأولمپ يتصايحون ويصخبون ، فخرج اليهم هاشاً باشاً ، ودق بصولجانه على الأرض المرمرية وقال : إخوانى . . أبنائى :

« لستم أنتم وحدكم تنقمون على ڤينوس الجميلة ما بدر منها فى حضرتكم من زَهوٍ وخُيلاء ، بل أنا معكم ناقم على هذه الابنة العاقة التى صعّرت فى حضرتى خدها ، وشمخت بأنفها ، وحسبت أنها خير من الآلهة درجةً وأعلى مقاماً . . .

لتطب نفوسكم يا إخوانى ويا أبنائى ! لقد أصدرت الساعةَ إرادةً أولمبية تقضى بأن تتزوج ڤينوس المتكبرة المتفرطسة المختالة من ڤلكان الحداد صانع دروعكم ولجُم خيولكم ! »

وما سمعها الآلهة حتى صاحوا لساناً واحداً : « ليحىَ زيوس العادل ! تقدست يا زيوس ! طوبى لك يا أولمپ ! »



آلهة الاغريق على جبل الأولمپ
(تصوير روبنس)

وكان ڤلكان بين الجماعة وهى تهتف ، ولكنه كان مشغولاً عنهم بتلك السعادة التى هبطت عليه من السماء ، وكان يحمل إرزبّته الهائلة ، فلما سمع النطق الأولمبى ، ضرب بها الأرض ضربة راجفة ، أحس بها پلوتو فى أعماق الجحيم . .

* * *

(١) هى قبرص وللاستاذ أسامة شكرنا .
(٢) بنات تيميز هن ربات الفصول الأربعة — وبنات يورنيوم هن تاليا وأجاليا ويوفروسين

— « يحسب الآلهة أننا معشر الربّات ملك أيمانهم دائماً ، يتصرفون بنا كما يحلو لهم ! ! ما عليهم إلا أن يأمروا ، وما علينا إلا أن نطيع ! لقد كنت أوثر أن ألبث في القصور المرجانية في أعماق الأعماق ، على أن تشرق عليّ شعاعة من الشمس الدافئة التي يرتع فيها أولئك الآلهة العُتاةُ الظالمون ! »

— « هوّني عليك يا مولاتي فقد يصفح غداً سيد الأولمب !

— « يصفح أولاً يصفح . . .

— « يا للهول ! . . .

— « أي هول يا فتاة . . .

— « ينبغي ألا تعرضي نفسك لغضب رب الأرباب . . .

— « رب الأرباب ! أنت تضحكينني يا أجمل العرائس الأوسيانيد !

— « مولاتي . . . !

— « إن رب الأرباب يحكم دنيا من الخزعبلات . . . أما القلوب . . . أما قلوب العذارى . . . فالحب وحده يتولاّهن ، ويهيمن عليهن . . .

— « إلهتي ڤينوس . . .

— « لا تنزعجي هكذا يا عروس الماء . . . لقد ولدت لأكون ربة الجمال والحب . . . فأولى لي ثم أولى ، أن أسعد بالحب ، وأن أختار من ذوي الحسْن متْعَتي الغالية ونعيمي الأوفى . . . ڤلكان ! ! أنا أقسم أن هذا الحدّاد لا يفرق بين القبلة والجذوة ، ولا بين نشوة الحب وزفير الكير ! ! وأخشى أن يغازلني يوماً



ڤينوس عند ڤولكان
(تصوير بوشيه)

فيحذفني بارزبته ، يحسبها ريحانةً أو زنبقة ! ! يا للحداد القذر ! ! »

— « ولكن زواجكما تسجّل في السماء يا ربتي !

— « إن كان سجل السماء مُدنّساً بكل هذه القبائح الاستبدادية ، فأنا . . ڤينوس ربة الجمال والحب والزواج . . . آنف أن يُدرجَ في صفحاته اسمي !

والآن اسمعي يا أوسيانة (١) ، اذهبي إلى حبيبي مارْس (٢) فبلغيه أنني منتظرته الليلة ، بعد مغيب الشفق ، تحت السنديانة الكبرى في أول منعرجات الغابة . . . »

***

وهكذا أقبلت ربة الحب على كؤوس الحب تنهل منها ما تشاء ، وتستعرض الآلهة وأنصاف الآلهة (٣) تُقبل منهم على من تشاء وتعرض عمن تشاء . . . وما أكثر القطيع وما أنهم الذئب !

لقد علقت مارس القويّ ، إله الحرب ، ورب الدمار ، ولم تبال بزوجها الفظ القذر المنتن ، الذي لا يميز جرس الموسيقى من طَرْق الحديد ، ولا نسيم الجنة من زفرات الجحيم !

وعلقها مارس وافتتن بها ، حتى لكان يعد دقّات قلبه دقةً فدقةً ، حتى يلقاها ، فتهدأ أعصابه ، ويطمئن قلبه ، ويثوب إليه رشده



ڤينوس تتخذ زينتها
(تصوير بوشيه)

ولقد كان اللعين إذا خلا إلى ڤينوس ، يذهب في الاستمتاع

(١) واحدة الأوسيانيد
(٢) اسمه اليوناني ايرس
(٣) في الميثولوجيه اليونانية الآلهة هم أبناء الآلهة الخلص وأنصاف الآلهة هم من كان أبوهم أو أمهم من البشر في حين تكون الأم الأخرى أو الأب الآخر من الآلهة . .

بها إلى أقصى خدود الطاقة ؛ وكان يبهره منها ألا يلقاها إلا متجردة ، فيجس هذه الذراع ، ويتحسس ذلك الثدى ، ويرشف ذلك الفم ، ويرتع فى هذه الجنة ذات الثمر التى نسميها الجيد ، ويخضع لرق السحر النافذة من جفنيها المدججين بالسهام ؛ ثم يضل فى تلك الظلال الشفقية التى يعكسها عليه شعرها . فاذا أفيق زودته بابتسامة تظل ترقص على الخدين والشفتين ، وشكّت فؤاده بغمزة من طرفها تتركه بين الحياة والموت . . . . وهكذا حتى يرضى ! !

وكان لايخشى من أعين الرقباء مثل مايخشى من عين أپوللو ، ولذا كان إذا وافى ڤينوس فى هـذا المنعزل الغرابى السحيق ، فى أعمق أحشاء الغابة ، ترك خادمه أليكتريون عند أول الشعب المؤدى إلى الطريق العام ، يلحظ المارين وينبه إلى خطر الأعداء والناقمين ، حتى يكون الأليفان بنجوة من الفضيحة ، وفى حرز من ألسن الكاشحين . فاذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ذهب أليكتريون فأيقظ العاشقين الآثمين ، فينهضان من غفوة الهوى إلى يقين الفراق ، قبل أن تشرق الشمس

ولكن ! وما أقسى ولكن هذه إذا لم تكن سعوداً على المحبين ! ! لقد ذهب العاشقان يتراشفان كؤوس الهوى دهاقاً ، ويلتذان بكل مأثم ومحرم ، حتى إذا نال منهما الجهد ، وترنحت أعينهما تحت عبء السهاد الطويل ، انبطحا على الحشيش الأخضر ، هو إلى جانبها ، وهى إلى جانبه ، غرقين فى سبات هنيء ! ولمح أليكتريون ظبياً نافراً ، يتفزع فى ظلام الغابة ؛ فتبعه ، وطفق يعدو وراءه حتى لحق به بعد عناء شديد ، فاحتمله وعاد به إلى مركزه من مكان الحراسة . . . ولكنه ماكاد يصل ثمة ، حتى تساقط متهدماً من التعب ، وغلبه نعاس عميق . . .

وأشرقت الشمس ! ! وبرزت المركبة الذهبية حاملة أپوللو ، رب هذا الكوكب المشرق المتأجج ، وبدأت رحلتها السماوية ، وأخذت ترتفع فى العلاء رويداً ، حتى إذا كانت بمنزلة الضحى ، أطل أپوللو فرأى مارس الأثيم ، وڤينوس الغاوية ، متعانقين على الحشيش الأخضر ، وكانت بين أمه لاتونا ، وأمها ديون ما يكون عادة بين (الضرائر) من بغضاء ومشاحنات ؛ وكانت ديون تفخر على زوجات زيوس جميعاً بأنها أم ڤينوس وحسب ! وكانت لاتعدل بابنتها واحدة من جميلات الأولمب ، بما فيهن ديانا أخت أپوللو ، وابنة لاتونا

انطلق أپوللو والشماتة تضطرب فى قلبه الناقم على ڤينوس ، يحمل الخبر الفاجع إلى ڤلكان ، فألفاه مستغرقاً فى صنع شبكة حديدية هائلة ، والنار تتلظى فى أتونها الكبير ، والدخان ينعقد فى جو المصنع كأنه ينقذف من بركان ، والملاقط والمبارد والمخارط متناثرة على الأديم المعفر القذر كأنها أعجاز نخل . . .

ـ « ڤلكان ! . . . »

ـ « هلا . . أپوللو . . ماذا جاء بك فى هذه الضحوة . . . وأنّى غادرت عربتك ؟ »

ـ « آثرت أن أطأ ثرى هذه الأرض بقدمىّ على أن تحملنى يوح(١) ، وقد تدنس شرف الأولمب بالفضيحة المزرية ! . . . »

ـ « الفضيحة المزرية ؟ ماذا وراءك يا أپوللو ؟ . . . »

ـ « ڤلكان ! أين زوجك ؟ . . . هل أويت اليها الليلة ؟ »

ـ « زوجى ؟ فضيحة مزرية ؟ . . . ماذا تعنى أيها الأخ ؟ »

ـ « أولم تفقه بعد ؟ . . . ولكن قل لى : ماذا تصنع بكل هذه الأسلاك الغليظة ؟ »

ـ « أصنع شبكة كبيرة . . . »

ـ « ولِمَه ؟ »

ـ « لقد لاحظت النجس مارس يحوم حول حماى . . . . وأنا لابد صائده »

ـ « هلم ، هلم . . . »

ـ « وإلى أين ؟ . . . »

ـ « تصيده . . . ألم تنته من صنعها بعد ؟ »

بل انتهيت . . . وأين مارس ؟ . . . »

ـ « على الحشيش الأخضر ، فى أول شعاب الغابة ، مما يلى الطريق العام »

ـ « ومع من ؟ . . . »

ـ « مع . . . . . . إنه قطعة واحدة مع . . . ڤينـ »

ـ « معها ؟ . . . ياللهول ؟ . . . هلم . . . ياللعرض الأحمر ؟ . . . »

واحتمل شبكته العظيمة ، وانطلق الآلهان إلى حيث . . . الناعمان الحالمان الآثمان !

(١) الشمس

لقد كانا ملتصقين التصاقاً تاماً ... حتى مايكاد ينفذ الماء بينهما ونسى كل إلف شفتيه فى شفتى إلفه ، فهما جلنارتان تبثان نجوى الهوى إلى جلنارتين !

يا لله !

ليس هذا فسقاً أيها الآلهة ، بل هو التمازج الذى سميتموه الزواج (١) !

وانقض ڤلكان كالمُذَنّب المدمِّر ، فألقى شبكته على الخائنين !

وانتفض مارس وهو يكاد يصعق من الذعر ، وانتفضت ڤينوس وهى تكاد تذوب من الخجل ! ولكن ! أى ذعر وأى خجل وهذه الشبكة قد أمسكت بهما كسمكتين ! !

لقد مضى ڤلكان ، بعد إذ ربط الشبكة بما كسبت فى أصل دوحة كبيرة ، وعاد بكل الأسرة الأولمبية (لضبط الحادثة !)

وكانت ساعة رهيبة ، انصبّت فيها لمزاتُ الآلهة الناقمين على رأس ڤينوس ، وراح كل منهم ينتقم لكرامته المهدورة من كبريائها وصلفها ، وهى ما تكاد تبين ! !

وأطلق ڤلكان سراحهما ؛ أما ڤينوس فذهبت تَنشد عشاقاً آخرين !

وأما مارس ، فمضى إلى حيث خادمه الأحمق إليكتريون ، فألفاه ما يزال يغط فى نومه غطيطاً مزعجاً ، فركله ركلةً أطارت صوابه ، وأخذ بتلابيبه نخضخضه نخضيضاً !

ثم إنه أقسم لينتقمن منه انتقاماً يكون أحدوثة الآباد وضحكة العباد ، فنفث فى أذنيه نفثتين ، ارتد بهما الخادم المسكين ديكاً عجيب الصورة ، أرجوانىّ التاج ، طويل الجناحين ، عظيم الذيل !

وركله مارس ركلة ثانية ، وقال له : «اذهب إذن فلن تذوق عيناك غفوةالفجر أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، وستصحو قبل كل الخليقة لتصيح فى النائمين :

ويحكم أيها الغُفاة ، هُبّوا فقد كاد أپوللو يقطر مركبة الشمس ! . . .

***

وما زال إليكتريون ، ديكنا المحبوب ، يوقظنا قبل الشروق إلى اليوم ! . . .

دريني خشبة

(١) هذه السطور من كينس وهى من أبرع شعره فى ڤينوس

من الأدب الايطالى

الليالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة اليوزباشي الأديب احمد الطاهر

يعد جيوفانى بوكاشيو GIOVANNI BOCCACCIO زعيم النثر الايطالى غير منازع فى زعامته ، وكانت رسائله نبراساً يستضىء به الـكتاب من بعـده ، ونذكر منهم بترارك ، شوسر ، دريدن ، كيتس ، تنيسون . أولئك وغيرهم كانوا فيما يخرجون للناس من كتب يغترفون من بحر بوكاشيو ويستلهمون وحيه ويتقفون أثره

ولد فى قرية سرتالدو التى تبعـد عشرين ميلا عن فلورنسا ونشأ بها . ولما جاوز الحول السادس والعشرين رحل إلى نابولى وكانت مهد غرامه ومهبط وحى الحب على قلبه ، فشغف بحب « ماريا دا كوينو » فبدأت من حياته صفحة جديدة فياضة بالخير سيالة بالنفع . فلقد كان حبها حباً كريما : بسط على نفس الفتى فضله فلقى فيه ما يلقى المحبون من سعادة ونعيم ، وفاض على نفوس الناس أجمعين بما أوحى إلى الفتى ، فتلقوا منه نثراً هو أبدع ما أخرج للناس من أقلام الكاتبين ، فيه دقة ، وفيه روعة ، وفيه جمال ، على نحو ما خلقت الفتاة من دقة وروعة وجمال . حتى لقد زعم الناس أن هذا البيان إن هو إلا وحى يوحى من الفتاة إلى هذا المحب المختار ، ثم أصبح زعمهم يقيناً فأغمضوا العين على تلك الصلة الوشيجة بين المحبين ، وانصرفوا إلى فضل الفتاة على رسائله ، فما يذكرونها إلا برسائله وما يذكرون رسائله إلا بها ، وغالوا فيما انصرفوا إليه فسموا الفتاة « صاحبة رسائل بوكاشيو » . ! !

وعاد الفتى إلى فلورنسا عام ١٣٥٠ م وكان قد انتهى من كتابة الليالى العشر أو كاد ، وأخرجها إلى الناس عام ١٣٥٣ م . ولقد دفعه إلى كتابتها عاملان ألحا عليه : رغبته فى إخراج شىء بديع قيم يزجيه إلى محبوبته ، ولا أبدع لدى الـكاتب من ثمرات قلمه ، والزلفى إلى ملـكة نابولى ، وكانت تشتهى أن تقرأ للفتى خير ما ينتجه يراعه

وكانت عودته إلى فلورنسا فى الوقت الذى أفلتت فيه المدينة من براثن الطاعون ، ونضت عنها قميص قيصر بعـد أن لم يترك فيها موضعاً بغير قرح ، ولا عضواً بغير جرح . وكان هذا الوباء على ما روى لنا الـكتاب حديث الناس فى تلك السنين العجاف ، فما كان عجباً أن يصـدر بوكاشيو كتابه بوصف هذه المحنة التى نزلت بالبلاد . ولقد وصفها فى بيان فصيح ، وأسلوب صريح ، ثم تخلص من وصف الوباء إلى سرد قصصه المائة فى الليالى العشر التى قدر لها أن تـكون من أكبر كتب العالم مدى الدهر

الفتيات السبع

هذه إحدى قصص الليالى العشر ، أو هى مقـدمة قصص الليالى نوردها فى اختصار وتلخيص ، لا نحاول أن نتسامى إلى منزلة الكاتب فى براعة الأسلوب ، ولا ندعى القدرة على مجاراته فى ميـدان البلاغة ، ولـكن حسبنا الأمانة فى النقل والدقة فى التعبير عما أراده الكاتب مما كتب ، أمانة ودقة لا ينقص منهما ما يقتضيه الأسلوب العربى من أحكام وأوضاع :

فلورنسا أجمل مدائن إيطاليا ، وأبهاها ، وأغناها ، تصبح ما بين عشية وضحاها أفقر البلاد وأشدها بؤساً وفاقة بما أصابها من كارثة الوباء التى نزلت بها عام ١٣٤٨ م . لقد كان هذا الوباء مرضاً ملحاً جباراً لم تفلح فيه عقاقير الأطباء ولا اعتصام الناس بالعزلة والفرار . وماذا تغنى العزلة وماذا يفيد الفرار ؟ والوباء ينساب بين الناس انسياباً تحمله أنفاسهم حين يتحدث بعضهم إلى بعض ، ويسرى بينهم إذا لمس السليم ثياب الموبوء . حتى إذا بدت على الجسم علامات حمر كانت نذيراً بالموت لا مفر منه ، ودليلا على انقضاء الأجل ، وتصرم أسباب الأمل ، إن هى إلا أيام ثلاثة ثم ينتهى كل شىء إلى ما تنتهى إليه كل الأشياء .

وغشى الناس من هول الكارثة فزع وجزع . وإذا فزع الناس فما أيسر خروجهم على القوانين الوضعية ، وإذا خلت قلوبهم من طمأنينة الثقة فما أيسر خروجهم على الشرائع السماوية ، فان تحرروا من هذه وتلك فليفعل كل امرىء ما شاء . وإنهم لواجدون فى هذه الفوضى متسعاً لاشباع الشهوات ، وإرضاء

النزوات ، ومتى لم يكن من الموت بد ففى رأيهم أن من الخرق أن تموت عابساً كئيباً ، وهذه قصور الأغنياء وخدور الغانيات فلنقتحمها ورداً ، ولننعم فيها قبل الموت بما حرمنا منه فى الحياة ، ولنمت وعلى وجوهنا ابتسامة اللذة ومخايل السرور ! ! كذلك كانوا يقولون . على أن بعض الناس أقام بينه وبين الناس سداً وحسب أن الحمية تعصمه من فتك المرض وظن بعضهم أن فى الاعتصام بالجبال والتأبد فى الخلاء ، منجاة من الوباء ، ففروا تاركين وراءهم حطام الدنيا ومتاع الحياة ، وما يغنى متاع الحياة وحطام الدنيا إذا فر الأخ من أخيه ، وفصلت الزوجة عن زوجها ، وأفزع الآباء والأمهات عن فلذات الأكباد ؟ هذه جثث الموتى متناثرة فى الطرق رأيتها بعينى ورأيت الكلاب تدس أنوفها فى الأجساد فيسرى إليها الداء ، فتخر صريعة على الأرض وتقتعد مكانها بين ضحايا الوباء .

فى خمسة أشهر من العام بين مارس ويوليو فتك الطاعون بمائة ألف من الأنفس ، وما كنا نحسب أن فى فلورنسا هذا العدد من الناس

ولكن ! مالى أردد ذكرى هذه الفاجعة ، ولقد برمت بها وبذكراها ! أليس الخير كل الخير فى أن يجتنب المرء ذكر ما تسوءه ذكراه ، وينسى ما يجد السبيل إلى أن ينساه ؟

فلأذكر إذاً أنه عندما أصبحت فلورنسا قفراً من الأهل والسكان جمعت البأساء بين فتيات سبع لهن من الجمال حظ وافر ، وعليهن من الثياب سواد ، واجتمعن يوم الثلاثاء فى كنيسة سنت مارى ، ولم تحو الكنيسة غيرهن من شهود الصلاة . وكانت تربطهن فوق رابطة البأساء صلة القرابة الوشيجة ، وصلة أوثق من هذه وتلك هى صلة الصداقة والوفاء . شهدن الصلاة ثم انتبذن ناحية من الكنيسة خلصن فيها نجياً يتدبرن فيما يجمل بهن أن يتخذن من سبيل فى الحياة وقد تخلين عن متاع الدنيا وتخلى عنهن الأهل والخلان . قالت كبراهن – بامبينيا : « الرأى عندى أن نرحل عن فلورنسا فننجو بأنفسنا من خطرها المحدق وشرها المحيق ، وأى خطر أشد من الطاعون ، وأى شر أسوأ من أولئك المارقين يجوسون الطرق ويقتحمون الدور ؟ هيا إلى الريف نجد فيه مراغماً ، وهواء طلقاً ، وحياة وادعة ، فى كنف التلال الخضراء والمزارع تموج فيها الحنطة كموج البحر ، ولا يرى البصر إلا نعيما ، مالنا ولهذه المدينة الخاوية على عروشها تبعث فى النفس أمض الذكريات وأقساها ؟ »

— قالت فيلومينا « وكيف السبيل إلى هذه الرحلة وليس لنا ساعد من الرجال ؟ »

— قالت أليزا « وأين الرجال يا أختاه ، وكل أترابنا منهم قد تبدد شملهم ، وانصدع جمعهم ، فمنهم من فتك به الطاعون ، ومنهم من ضرب فى الأرض لا يعرف له مستقر فهم لا يرجعون »

وفيما هن يقلبن الرأى على وجوهه إذ وفد عليهن ثلاثة فرسان : فتيان فى ميعة الصبى وروعة الجمال ، خرجوا يلتمسون بين الناس فتيات لهم بهن صــلة ، وما كانوا يبحثون إلا عن « نيفيل » و « بامبينيا » و « فيلومينا » من فتياتنا السبع

صاحت بامبينيا « لقد ابتسمت لنا الأقدار فساقت إلينا ثلاثة رجال أكفاء أشداء وأنا زعيمة لكن بأنهم سيلبون دعوتنا إذا دعوناهم » ثم أقبلت على الفرسان تقص عليهم ما كن فيه يتحدثن ، وطلبت إليهم فى توسل ورجاء أن يكونوا عوناً لهن ونصراء ، وأن يصحبوهن إلى حيث أردن

ضحك الفرسان منهن وتندروا على هذا الرأى ما شاء لهم الشباب أن يتندروا ، ثم أنسوا من الفتيات جداً فى الرأى وصلابة فى العزم ، فأذعنوا راضين ، وتقدموا غير هازلين ، وافترق الجمع على أن يكون الرحيل عن فلورنسا فى صبيحة اليوم التالى

وذر من الشمس شعاع ، فهب الفتيات والفرسان ومعهم الوصفاء وساروا على هدى العزيمة فرسخاً ألقوا بعده عصا الترحال ، وكان ذلك عند شرف من الأرض يشبه التل ، تجلل هامته غابة باسقة الرماح ، ممتدة الصفاح ، يقوم فى جوفها صرح شاهق يعجبك رواؤه ، ويبهرك بناؤه ، قد انبسط تلقاءه سرح فسيح ، وتشعبت فى أنحائه أبهاء واسعة ، وفى مقاصيره من دلائل العز والميسرة ، تحف منثورة ، وصور منشورة ، وحاطت بالقصر حدائق ذات أشجار وأثمار تقوم على ريها نافورات تقذف بسهام الماء ، فكأنما يصب على الأرض من السماء . وكان كل ما فى القصر متسقاً منضوداً ، كأنما أعد لاستقبال الوافدين ، واستراح المتعبين ؛ وظل الفتيات والفتيان يمشون فى سروحه وأرجائه ،

وأفنيته وأبهائه ، ويقطفون من زهوره وأثماره ، ويتغنون فى هذه الجنان ، بأعذب الألحان ، حتى حان موعد الغداء فمد سماطه فى بهو الولائم . وما انتهوا منه حتى تناول « ديونيو » أحد الفرسان آلة من آلات الموسيقى ، وأمسكت « فيامتا » إحدى الفتيات بآلة أخرى ، وواءمتا بين نغمتين طرب من مزاجها الجمع حتى غنى ورقص ما وسعه الجهد

وظلوا كذلك حتى أدركهم الليل وهم فى طربهم ماضون ، وأسلمهم التعب إلى نوم عميق ، وكانوا قد اتفقوا فيما بينهم على أن ينصبوا « بامبينيا » أميرة عليهم فى الغداة ، ولها عليهم حق الأمر ، وعليهم لها واجب الطاعة ، على أن تدبر لهم شأن المحافل والجلسات وما يتخللها من الملاهى والمسرات

وفى ضحوة اليوم التالى لبوا دعوة الأميرة وانتظموا حولها فحيتهم تحية جميلة ، وأخذت عليهم فى رفق ولين تكاسلهم عن النهوض مبكرين ، وفى نوم الضحى مضرة للأبدان تشفق منها عليهم وتعيذهم من أذاها . ثم سارت أمامهم إلى واد ذى زرع أخضر تقوم على عطفيه أشجار باسقة ، وقالت : « هنا الشمس مشرقة مشرفة ، ترسل علينا أشعة حامية محرقة ، فليس من الرأى أن نواصل المسير ضناً براحتنا وحرصاً على هنائنا ، فلنجلس إلى ظل هذا الوادى الوادع تحت أغصان الزيتون ، ولتكن جلستنا على نحو دائرة لا يلتقى طرفاها ، وليقصص كل واحد وكل واحدة منا قصة شيقة ، فان هدأت الشمس وانكسرت حدتها اتخذنا فى اللهو سبيلا آخر ؛ ولتكن أنت يا « بامفيلو » أول من يقص علينا قصته :

واستوى الفتى فى جلسته وقص القصة الآتية :—

(يتبع) اليوزباشى أحمد الطاهر

البريد الأدبي

ذكرى العلامة روبرت كوخ

احتفل أخيراً في ألمانيا بذكرى روبرت كوخ أحد أقطاب العلم الألماني، وذلك بمناسبة مرور خمسة وعشرين عاماً على وفاته؛ وقد خلد كوخ اسمه في عالم الطب بما وفق اليه من الاكتشافات الطبية والبكترلوجية الباهرة؛ ولاسيما في شأن السل والكوليرا؛ وكان مولد هذا العلامة في سنة ١٨٤٣. وفي سنة ١٨٧٦ بدأ اكتشافاته البكترلوجية باكتشاف «البشيل» وطريقة الحقن باللقاح، وفي سنة ١٨٨٢ كان اكتشافه الباهر «لبشيل» السل الذي يفتك بعشرات الملايين، فكان ذلك بدء تلك الجهود الطبية الجاهدة التي تبذل منذ كوخ إلى عصرنا لمكافحة هذا الداء الوبيل؛ وفي العام التالي زار كوخ مصر والهند على رأس بعثة لبحث أسباب الكوليرا، ثم عين أستاذاً في جامعة برلين، ومديراً لمعهد الأمراض المعدية. وكان من رأيه أن هنالك فارقاً بين السل الذي يصيب الانسان، والسل الذي يصيب الماشية، وأن المرض لاينتقل من هذا الجنس إلى ذاك، ولكن الجمعية الملكية البريطانية عارضت هذه النظرية بمباحثها وتقاريرها. وفي سنة ١٨٩٦ زار كوخ أفريقية الجنوبية ليدرس طاعون الماشية، وفي العام التالي زار أفريقية الشرقية الألمانية ليدرس خواص الملاريا ومرض النوم. وله عدة مؤلفات عن السل والملاريا والتيفوس تعتبر حجة في موضوعها، وكانت وفاة كوخ في سنة ١٩١٠

وقد احتفل العلم الألماني بتكريم ذكرى هذا العلامة في احتفال رسمي أشيد فيه بعبقرية كوخ وفضله على الانسانية كلها بما وفق اليه من الاكتشافات العظيمة التي ما زالت أساساً لبحوث الطب في عصرنا؛ وأعلن بهذه المناسبة أن الحكومة الألمانية قررت انشاء «معهد كوخ» الذي تقرر انشاؤه قبل الحرب لتخليد ذكرى كوخ ثم حالت الحرب دون انشائه؛ ثم رأى العلم الألماني أن ينتهز فرصة هذه الذكرى ليعمل بمعونة الحكومة الألمانية على تحقيق هذا المشروع الانساني الجليل

موسم الكتب في فرنسا

يعاني الأدب وتعاني الكتب في مختلف الفنون أزمة ظهرت آثارها واضحة في كثير من الأمم الأوربية؛ ولهذه الازمة أسباب كثيرة أهمها الاذاعة اللاسلكية والسينما وطغيان الترجمة الرخيصة على الأدب المحلي، ومنافسة الصحافة للكتب بما تخرجه من الصحف العلمية والأدبية والفنية وغيرها وتعرضه بأبخس الأثمان؛ وقد نشطت السلطات والهيئات المختصة في فرنسا لمحاربة هذا الركود الفكري، وبث الدعاية لنشر الكتب بمختلف الوسائل المرغبة؛ فأقامت نقابة الناشرين وغرفة المكاتب معرضاً كبيراً في حي سان جرمان أطلق عليه «عشرة أعوام من الطباعة الفرنسية»، وعرضت فيه الكتب في سائر العلوم والفنون من أرخص الطبعات إلى أغلاها وأثمنها، بطريقة تبين تطور الطباعة وأساليب النشر في عشرة الأعوام الأخيرة؛ وصفت كتب الفلسفة والدين والعلوم والآداب والمباحث الروحية والقصص كلها جنباً إلى جنب. وأقيم في بهو خاص منصة فخمة خصصت للجوائز الأدبية التي منحت منذ سنة ١٩٢٥، وأسماء الفائزين وأنواع الجوائز؛ وقد أم هذا المعرض الحافل جماهير غفيرة من الزوار، وأحدثت اقامته حركة كبيرة في اقتناء الكتب

وفي الوقت نفسه أقامت نقابة الناشرين مظاهرتها السنوية التي تعرف «بيوم الكتاب» وهي مناسبة تتخذها المكاتب كل عام لتعرض في واجهاتها أكداساً من الكتب الجديدة الخلابة بأثمان معتدلة، وقد أصبح يوم الكتاب «أسبوعاً» كاملاً يجري فيه هذا العرض في جميع مكاتب باريس الشهيرة ومكاتب المدن الكبيرة، وتقدم فيه بهذه المناسبة فرص حسنة للشراء، وفي كل عام تصدر نقابة الناشرين مؤلفاً نفيساً يهدى الى من يشترى كتباً قيمتها عشرون فرنكا. وأسبوع الكتب يعتبر من المواسم الأدبية الحافلة، التي تدر الخير على الناشرين والمؤلفين

فمتى نفكر في مصر في تنظيم مثل هذه الحركات والمعارض

الكتب

ضحى الاسلام

الجزء الثانى

تأليف الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

لقد أخرج للناس الأستاذ الجليل (أحمد أمين) كتابه ضحى الاسلام، الجزء الثانى منه، فقرأته قراءة ناقد متفحص؛ فألفيته قد حوى جهداً محموداً، ونهج منهجاً جديداً. استقصى الأستاذ فأحسن الاستقصاء، وقرأ فأجاد القراءة، وفهم فأتقن الفهم، واستنبط فوفق إلى الصواب، فى حسن ترتيب، وجمال تصوير، وقدرة على الاحاطة، وصبر على التفصيل

وصف الأستاذ فى الفصل الأول من «الضحى» قوانين الرقى العقلى، ثم طبقها على الفكر العربى، وتدرج من ذلك إلى انقسام العلوم عند العرب فى العصر العباسى، ثم ختم هذا الفصل بالكلام على حرية الرأى فى ذلك العصر، فكان الأستاذ فى هذا الفصل نسيج وحده، مبتكراً لمنهج جديد فى البحث، وأسلوب طريف فى التعليل

وفى الفصل الثانى والثالث تكلم الأستاذ على معاهد التعليم

المفيدة، ومتى نفكر فى محاربة ذلك الركود الأدبى الذى يكاد يشل عندنا كل تقدم فكرى وأدبى؟

بلسودسكى الشاعر والكاتب

لم يكن المارشال بلسودسكى بطل بولونيا القومى الذى توفى منذ أسابيع قلائل جندياً وسياسياً عظيماً فقط، ولكنه كان كذلك شاعراً وكاتباً له آثار فى الشعر والنثر، والمعروف عن المارشال أنه تربى وتكون فى معترك الصحافة، وكان فى شبابه يحرر جريدة ثورية سرية، كان ضبطها سبباً فى الحكم عليه بالنفى إلى سيبيريا؛ ولما قبضت القيادة الألمانية على بلسودسكى أثناء الحرب الكبرى حينما ارتابت فى حركاته وخشيت من نفوذه على الجيش البولونى، وزجته فى قلعة مجدبرج لم يجد الماريشال وسيلة لتخفيف آلام الأسر سوى الكتابة، فوضع كتاباً سماه «معاركى الأولى»، وصف فيه ما خاضه من المعارك الثورية ضد جنود القيصر، ثم المعارك الأولى التى خاضها عند نشوب الحرب الكبرى بأسلوب بليغ ينم عن مقدرته الكتابية، وأصدر بعد الأفراج عنه كتاباً آخر عنوانه «سنة ١٩٢٠» وصف فيه الحرب الروسية البولونية، وكان الماريشال ينظم الشعر، ويشغف بقراءة دواوين أكابر الشعراء الفرنسيين، مثل لامرتين وهوجو وبودلير، وفيرلين ومالارميه. ومما يؤثر عنه قوله: «إن الشعراء هم أقرب الناس إلى رجال العمل!»

مركز هوجو فى النثر

ما زالت الصحف الأدبية الفرنسية تفيض بالحديث عن فيكتور هوجو، وعن نظمه ونثره ورفيع منزلته فى الأدب الفرنسى، وذلك لمناسبة الاحتفال بالذكرى الخمسينية لوفاته حسبما أشرنا فى العدد الماضى، وليس بين النقدة خلاف فى المنزلة الرفيعة التى تبوأها فى الشعر؛ بيد أن هنالك من يقول بأن هوجو يتبوأ فى النثر أرفع من هذه المنزلة. وقد شهد لهوجو بالعظمة فى النثر كتاب عظام مثل بلزاك صديقه ومعاصره، ثم جاء موريس باريس بعد ذلك فقال: «إن هوجو أعظم ناثر فى القرن التاسع عشر». وقد وصفه أخيراً كاتب كبير فى إحدى المجلات الأدبية، فقال: إن هوجو الناثر يتفوق فى تحليل أشد عواطف الروح وأحوالها تعقيداً، وأعمق أزمات الضمير، ومعارك الانسان والقدر. ولمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر الكبير أصدرت إحدى دور النشر الباريسية الكبرى طبعة كاملة من جميع مؤلفاته تقع فى ٨٢ مجلداً

ودرجات التدريس، وعلى المكتبات والمناهج، ثم انتقل بعد إلى الحديث عن مراكز الحياة العقلية، فأبدى فى مطاوى هذا البحث عن شخصية قوية، ورأى مستقل. وقد وفق الأستاذ التوفيق كله فى المقابلة بين الروايات المختلفة عن (بيت الحكمة) وفى الاطمئنان الى نتيجة معقولة حسنة، ولاسيما عند استخدام الأستاذ فى تحقيقه «فقه اللغة» وتاريخ الألفاظ. فهو طرافة فى التفكير، وجدة فى الأساليب. وما أجمل الأستاذ وهو يعلل ضعف الفن فى الحجاز فى عصر الدولة العباسية تعليلاً متواضعاً مقنعاً. أما كلامه عن (المربد) فى هذا الفصل، فكلام المستقصى الدارس. ولست مغالياً إذا قلت إن باحثاً لم يسبق الأستاذ فى إلقاء نور وضاء قوى على هذا (المربد) وبيان أثره فى الحياة العقلية عامة، واللغوية خاصة، بل كان المؤلفون يمسونه مساً رقيقاً، ويمرون به فى أبحاثهم مراً رفيقاً

وجاء الأستاذ أيضاً فى هذا الصدد بنظرية العصبية للقطر، ثم للبلد، ثم تدرج بذلك الى نشوء مدارس النحو المختلفة حتى وقف بمصر فاذا بالشعور القومى الخالص يملك على الأستاذ عواطفه، وإذا بالوطنية الصادقة تأسر عليه مشاعره، فيأبى إلا أن يجلى مصر فى مضمار النهضة العلمية تجلية مشرقة، فينصفها فى البحث وإن لم ينصفها الدهر فى الحظ، فى غير محاباة ولا تحيز، شأن العالم الورع، والمحقق العادل

أما فى الفصل الرابع والخامس فقد تكلم الأستاذ عن الحديث والتفسير والتشريع. ومن أجدر من الأستاذ (أحمد أمين) بتوفية هذه البحوث والقيام بواجب تحقيق هذه المسائل، فهو ابن بجدتها، وأبو عذرتها. ولا يرضينى فى الكشف عن محاسن هذين الفصلين إلا أن أشير على القارىء الكريم بقراءتهما، وأرغب اليه فى دراستهما حتى يتذوق جمال حقائقهما بنفسه؛ ويقف على بديع تنسيقهما بدرسه. إذ هما يقعان فيما يقرب من مائة وخمسين صفحة من الكتاب. والكتاب كله فى خمسين وثلثمائة صفحة. فجزى الله الأستاذ عن الحديث والقرآن خير الجزاء

أما فى الفصل السادس من الكتاب، وهو الفصل الذى يمت الى الأدب فى صميمه، ويرتبط باللغة فى أصولها. فقد بحث فيه الأستاذ اللغة والنحو والأدب، فتراه فى هذا الفصل أميناً محافظاً على طبيعة هذه العلوم من الوقوف عند النقل والاقتصاد فى الرأى والنقد فى غير ما سرف ولا افراط

أما الفصل السابع وهو الأخير فى الكتاب فكان الكلام فيه عن التاريخ والمؤرخين. أتى فيه الأستاذ بتقسيم جميل لأنواع التاريخ، من تاريخ فى السيرة، وتاريخ للحوادث، وتاريخ للأنساب، وتاريخ للرجال، وأخبار وقصص. فكان موفقاً جد التوفيق فى تحليله لمغازى ابن اسحق تحليل المنصف الدارس فى بصيرة نافذة ورأى حرطليق. ثم ختم الأستاذ هذا الفصل بالكلام على عيوب المؤرخين الاسلاميين ومزاياهم فأنصفهم ووفاهم حقهم

وبعد، فسأذكر ما أخالف الأستاذ فيه من الرأى، وهى مخالفة يسيرة واختلاف هين. وقد عودنا الأستاذ تقبل ذلك بما عهدناه فيه من سمو فى الخلق ونبل فى القصد

أولاً: أحصى الأستاذ فى ص (١٧٣) المذاهب الفقهية التى ظهرت فى العصر العباسى سوى المذاهب الأربعة، ولكنه أغفل مذاهب الشيعة. مع أنها مذاهب لها قوتها ولايزال بعضها منتشراً كمذهب الزيدية فى اليمن والامامية فى العراق وايران. فلهذا المذهب أئمة ومؤلفون وكتب فقهية تطبع وتدرس

إلا إذا كان الأستاذ قد رأى تأخير ذلك إلى الكلام على عقائد الشيعة فى الجزء الآتى بعد من الضحى

ثانياً: ذكر الأستاذ فى ص (٢٤٥) أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات فى اللغة العربية ثم ساق مثلاً لذلك فقال (إن السُّكَّر اسمه المِبرَت بلغة اليمن)

ولى على هذا اعتراضان: الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربى بل هو تعريب للفظ شكَر الفارسية وهى قريبة جداً فى نطقها من لفظها فى اللغة الانجليزية (Sugar) (راجع ص ٩٢ من كتاب الألفاظ الفارسية المعربة للسيد أدّى شير. وص ٨ و ١٠٥ من شفاء الغليل للخفاجى. والقاموس للفيروزابادى وص ٣٢٦ من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى. وجـ٦ من اللسان وص ١٦٦ جـ ١ من المزهر للسيوطى)

والاعتراض الثانى هو أننى كنت أود أن يذكر الأستاذ من آثار ذلك الاختلاف بين القبائل، المشترك من الألفاظ بقسميه لأن هذا النوع له أثر واضح فى اختلاف المذاهب فى التشريع كلفظ القرء فى قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء)

ثالثاً : ذكر الأستاذ فى ص (٢٤٨) أن استعمال الكلمات المعربة كثر بعد الاسلام والفتح ، ثم أخذ يسرد أمثلة للألفاظ التى تغلغلت فى اللغة إثر الفتح

واعتراضى أن بعض تلك الألفاظ التى ساقها الأستاذ كان قد دخل اللغة العربية وعُرّب منذ عصر الجاهلية فلم يكن دخوله إذن نتيجة للفتح الاسلامى . مثال ذلك لفظة (الفلفل) قال امرؤ القيس فى معلقته :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

وقال أيضاً :

كأن مَكاكِيَّ الجواء غُدَيّة صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

وجاء فى اللسان خمر مفلفل ألقى فيه الفلفل

مثل آخر لفظة (الورد)

فقد جاء فى اللسان ص (٤٧٠) من الجزء الرابع . « الورد ببلاد العرب كثير ريفيةً وبريةً وجبليةً . قال الزجاج فى قوله تعالى : فكانت وردة كالدهان : أى صارت كلون الورد » . وقد جاء فى القاموس أن أم طرَفَةَ سميت بوردة

ومثل ثالث وهو لفظة (مسك) ويكفى فى اثبات جاهليتها فى التعريب ورودها فى القرآن الكريم قال تعالى (ختامه مسك)

رابعاً : لقد استقصى الأستاذ الكبير الفروق فى اللغة والنحو بين مدرسة البصرة والكوفة

ووددتُ لو أنه أعقب ذلك بذكر خصائص المدرسة البغدادية فى النحو أيضاً . وهو قد ألم إلى هذه المدرسة فى ص (٨٣) حيث قال : ثم تظهر فى النحو مدرسة بغدادية لها طابعها الخاص ولها لونها ولها متعصبوها

ومهما يكن من شىء فهذه هنات يسيرة لا خطر لها ولا أثر فى حسن الكتاب وقيمته . وإنى أشهد مع الدكتور طه بحق أن الأستاذ (أحمد أمين) قد وفق فى هذا الكتاب إلى الاجادة العلمية والفنية ، وكشف عن الحياة العقلية الاسلامية كشفاً ، ثم عرضه عرضاً هو أبعد شىء عن جفاء العلم وجفوته ، وأدنى شىء إلى جمال الفن وعذوبته . فلينعم القراء بفصول هذا الكتاب ولينعم المؤلف بما ينعم به الظافر الموفق

عبد الوهاب حموده

الدسائس والدماء
أو على بك الكبير
كتاب للأستاذ خيرى سعيد
للأستاذ محمود تيمور

إنها لصفحة مروعة تلك التى قرأناها فى هذا الكتاب . صفحة الدسائس والدماء حقاً . صفحة تصور لك فى أسلوب روائى أخاذ ذلك العصر الدامى الفاجع الذى عاشت فيه مصر حقبة من الزمن ، وهى ترى بعيون ذاهلة وقلب ينبض حسرة وألماً ، ونفس صابرة هذه المشاهد الجهنمية التى تمثل على مسرحها . ذلك هو عصر المماليك الذى أحياه أمامنا فى لباقة صديقنا القصصى الأستاذ خيرى سعيد ، فاستطعنا ونحن نقرأ كتابه أن نحيا فى ذلك العصر نعاشر أهله ونصاحب حكامه ونشهد مواقعه المتلاحقة ، ونحضر حفلاته الرائعة — حفلات الانتصار والاندحار — استطعنا أن نعيش فى ذلك الجو الغريب نشم فيه رائحة البخور ممزوجة بالدم ، ونصغى فيه الى صوت المؤذن يطغى على أنات المحتضرين وصليل السيوف ، وهى تهوى على الرقاب . أجل لقد استطاع الأستاذ خيرى بأوصافه الدقيقة وخياله الواسع أن ينقلنا الى ذلك العصر ويتركنا فيه برهة من الزمن ، شعرنا أثناءها أننا رجعنا القهقرى الى القرون الوسطى ، وأن الدنيا غيرها بالأمس ، فلا كهرباء ولا قهوات ولا ولا . . فاذا أردنا أن ننتقل فعلى الدواب ذات السرج المفضضة والبراذع المنقوشة تخترق بنا الحارات الضيقة . نذهب بها فى نزهة الى الخليج . أو فى مهمة الى بركة الفيل حيث قصور الأمراء . أو فى أمر بيع وشراء الى ساحل بولاق ، ذلك المرفأ النيلى العظيم المزدحم بخيرات البلد . . وإذا أردنا أن نعلم شيئاً مما هو جار من الحوادث تسقطناه لِماماً من أفواه الناس . فهناك فتنة تختمر ، أو مجزرة تستعر ، أو حرب على الحدود تدور رحاها . وإذا أردنا أن نريح أعصابنا ورغبنا فى الترويح عن أنفسنا قصدنا الى دور أصدقائنا العلماء فنحظى بجلسة هادئة نشرب فيها القهوة الفاخرة ، ونتناول العشاء السخى ، ونستمع الى مسامراتهم الجميلة أو الى أناشيد المنشدين . . أجل لقد عشنا حقاً فى مصر فى ذلك العهد القاسى المضطرب . رأينا الأمة منقسمة الى طبقات لا يتعدى أهل الواحدة على الأخرى . فهناك طائفة الفلاحين تعمل طيلة العام لتمون الكشّاف والسّناجق (الأمراء المماليك)

إذ أن الحكم حكم اقطاع . الفلاح آلة نشطة طيعة ليس لها إلا أن تُعطى . ولكنها كانت فى الوقت نفسه آلة ماكرة تعلمت الخبث من هؤلاء السادة الطغاة فاستطاعت أن تراوغهم هازئةً بهم . ترشو هذا لتبعد ذاك ، وتعطى جزءاً لتحتفظ لنفسها بأجزاء . ثم هناك الطبقة الحاكمة وهى المماليك ، تلك الطائفة الغريبة التى امتهنت الحكم ورضيت بما يحفه من خطر دائم . طائفة كانوا يشترونها فى الأسواق أطفالاً أرقاء يأتون بهم من مواطنهم فى بلاد الشركس وأواسط آسيا ، وينشئونهم نشأة حربية ، فاذا ما نما المملوك واكتمل أصبح فارساً يجيد الحرب كما يجيد الحكم . وهو فى الحالتين غدار خبيث يعمل بقول القائل : الغاية تبرر الواسطة . يعيشون طول حياتهم والسيف لا يهمد لحظة فى يدهم . وانك لترى على ملابسهم المزركشة المقصبة المحملة بالخناجر والسيوف بقعاً من الدم كأنها أوسمة فخار . وإذا ما دخلتَ دورَهم عثرتَ قدمك برأس أو بضعة رؤوس بشرية تعترض طريقك . فاذا ما أغضيت النظر وتابعت سيرك دوى فى أذنك صراخ مستغيث ، فاذا بهارب يهوى أمامك متخبطاً فى دمه . . هؤلاء المماليك وعلى رأسهم شيخ البلد كانوا حكام مصر الحقيقيين فى تلك الحقبة الرهيبة التى زعم العثمانيون أن البلد فيها إيالة تركية لا أكثر ولا أقل . ولكن أين مظهر تلك التبعية ؟ أفى الباشا الوالى ذلك الحاكم المسكين الذى كان يوليه السلطان حكم مصر فلا يتعدى حكمه دائرة القلعة المسجون فيها ؟ وليته كان يُترك سعيداً بحكم هذه المنطقة الصغيرة . انه كان فيها أشبه بالطرطور يلبسه شيخ البلد . ليس عليه إلا أن يصدر الفرامانات التى يطلبها منه هذا الشيخ ، فاذا عصى فالى العزل أو الحبس أو القتل ! ! أم فى تلك الحامية التركية الضعيفة التى نقص أفرادها على توالى الزمن فاستعيض عنهم بنفر من أهل البلد ؟ . . وهناك غير هاتين الطائفتين طائفة قوية تحتكم فى ثروة البلد هى طائفة التجار ، تلك التى كانت كلها من أبناء البلد والتى عاشت بالرغم مما انتابها من عسف كان يهدد فى ثروتها ، عاشت فى شىء من الرخاء والهدوء ؛ وبجانب هذه الطائفة كانت طبقة العلماء ـ شيوخ الأزهر ـ تلك التى كانت تسيطر على البلاد بقوتها الروحية . وكانت الأمة كلها وحكامها على رأسها تضمر لها الاحترام وتعمل بنصائحها . ولكن هذا لم يكن يمنع عنها بعض الأحيان بطش هؤلاء الحكام وغدرهم

. . . أجل لقد استطاع الأستاذ خيرى سعيد أن ينقلنا إلى ذلك الجو وكأنه أركبنا طيارة وطار بنا على صعيد مصر كلها فاذا بنا نرى النار تشتعل فى كل مكان : حكام القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف ، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الادارى يستمتعون بما جنوه من أموال وخيرات ، وبين هؤلاء الحكام وبعضهم حروب لا يخمد لها لهيب ، والناس لا تعرف من الأمن إلا اسمه . فاذا ما سار التاجر بأسطوله النيلى المحمل بخيرات البلد من منطقة الى أخرى وجب عليه دفع الاتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق ـ طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف امتهنت السلب وتفننت فيه وأثرت منه ـ وإلا أصاب أسطوله النهب والتحطيم

فى ذلك الجو الخانق ظهر على بك الكبير . وكان كبقية المماليك . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الخيانة تطيح رؤوس الأمراء . عاش مملوكاً طيلة حياته تتمثل فى سياسته أساليب القسوة والغدر . ولكنه كان مملوكاً أكثر ذكاء وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره . تمثلت فيه صفات المُلك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر فاستغنى عن الباشا الوالى وأخضع سائر المماليك لحكمه وضرب على أيدى قطاع الطرق . فاستمتعت البلاد فى عهده بالأمن وبشىء من الطمأنينة لم تستمتع بهما فى عهد غيره . وأحست بنوع من الكرامة الوطنية تذكو فى فؤادها . فقد رأت حاكمها المعظم يقطع صلته بالدولة العثمانية ويجعل لمصر مركزاً ممتازاً بين الدول . . . ولكن هذا العهد لم يدم طويلاً ، فقد تألب المماليك المدحورون برياسة محمد بك أبى الذهب مملوك على بك وساعده الأيمن فيما مضى — وشقت عليه عصا الطاعة ، وقاتلته حتى دحرته ، ومن ثم أرجعت الباشا الوالى الى عرشه الواهى المتآكل . . . وعادت الحياة كما كانت قبل أن يحكمها ذلك العاهل الكبير

صور عنيفة جبارة ، يعرضها أمامك المؤلف فى دقة غريبة وتنسيق جميل فى كتابه الدسائس والدماء ، وإنك لتعجب وأنت تقرأ هذه الصحائف الممتعة كيف استطاع الكاتب أن يجمع لك فى كتاب لا يتعدى المائة والخمسين صفحة ، هذه الحوادث الجسيمة والشخصيات المعقدة فى شبه ملحمة لم تدع كبيرة ولا صغيرة عن هذا العهد الا سجلته . ولعلك تعجب أيضاً إذا علمت أن كل فصل من فصول هذا الكتاب يصح أن يكون قصة مستقلة يستطيع مؤلفها أن يملأ بها عشرات الصفحات . . .

فالى صديقى خيرى تهنئتى الخالصة وتقديرى الكبير ؟

محمود تيمور